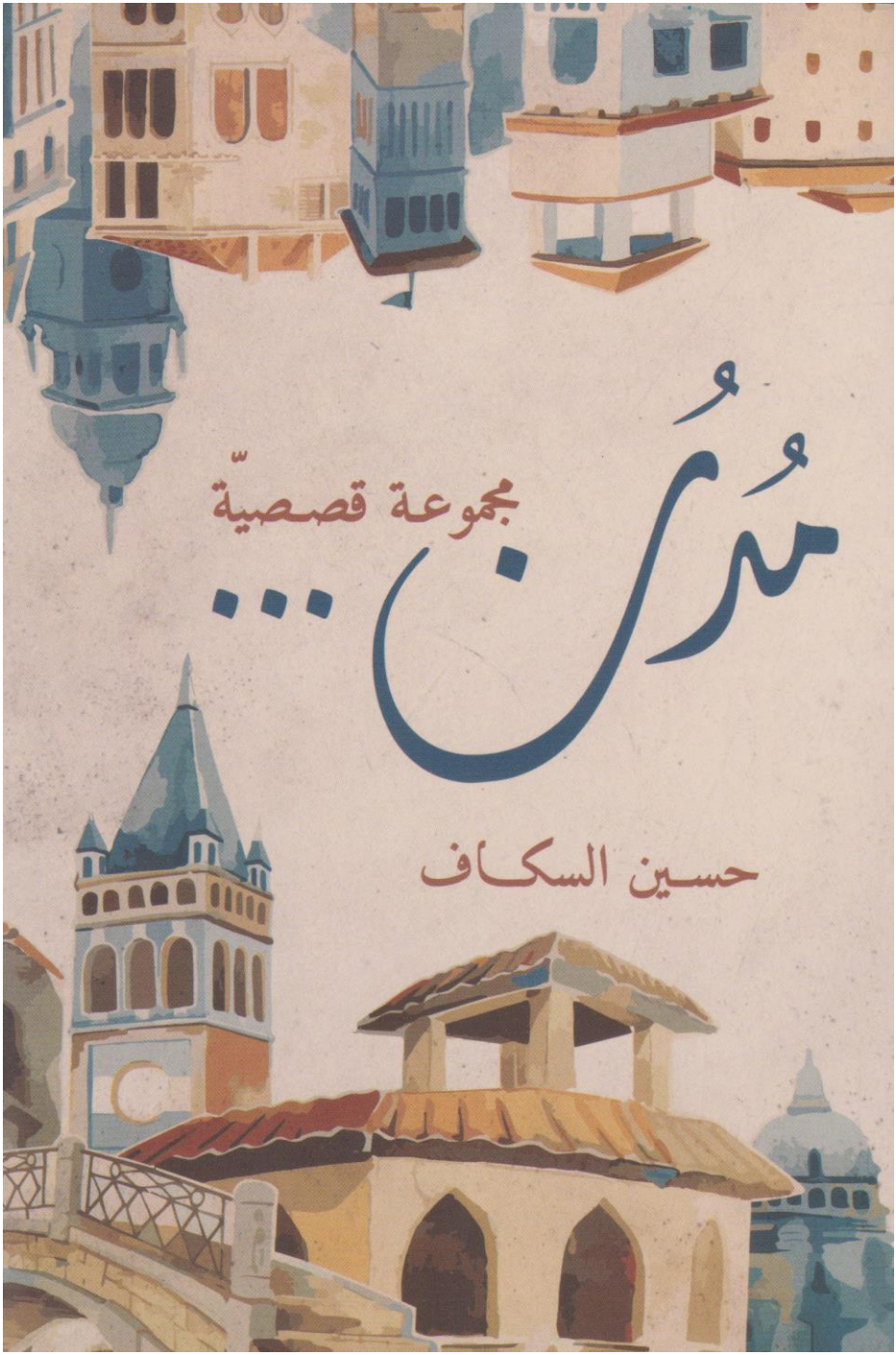

مُدُن ...

مجموعة قصصيّة

حسين السكاف

مكتبة الدكتور علي اسكندر الوائلي

مُـــدُن...

مُــدُن...

حسـيـن الـسـكـاف

الطبعة الأولى 2019

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أونقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

دار الفراشة للنشر والتوزيع
DAR AL FARASHA PUBLISHING AND DISTRIBUTION
ضاحية عبد الله السالم ص.ب: 153، الرمز البريدي 72262 الكويت
Alfarasha_q8 Alfarashaq8
alfarashapublishing@gmail.com

جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN:978 - 1 - 989660 - 64 - 5

مجموعة قصصية

مُـــدُن...

حسين السكاف

دار الفارابة للنشر والتوزيع
DAR AL FARABIA PUBLISHING AND DISTRIBUTION

(1)

بودابست

«تحت تمثال كالفن»

من بطن الأرض خرج «نورس» متثاقل الخطى. كان ذلك واضحاً على بطء خطاه حين ارتقى درجات السلم حاملاً على ظهره حقيبة داكنة السواد بخطوط جانبية حمراء، قادماً من عمق محطة المترو تحت الأرض حين لفظه قطار (M2) حاملاً بين طيات ثيابه برودة لزجة، جادت بها عليه عتمة محطة استوريا (Astoria) لتستقبله «جادة المتحف»، منذ بدايتها حيث حرارة الصيف اللاهب... توجه بنظره صوب زاوية قرب سياج حديدي، فشعر بحميميتها، متذكراً ليلة أمس حيث بات ليلته الرابعة والعشرين على أرصفة شوارع بودابست. اقترب من الزاوية ثم جلس منصاعاً تحت إغراء ظلّ لشجرة وارفة، أخرج من حقيبته سندويشة الفلافل التي اشتراها منذ نصف ساعة من مطعم تركي للأكلات السريعة، وقنينة ماء كانت فارغة، ملأها من إحدى حنفيات الشارع قبل أن يستقل قطار المترو من محطة «كَلَتي»، أكمل التهام السندويشة وكرع نصف قنينة الماء ثم استرخى قليلاً بجسده المستظل بشجرة لا يعرف لها اسماً، ثم

غفا وكأن جسده قد قرر أخذ قيلولة الظهيرة، ليعود بذاكرته إلى مدينة «داريّا» التي ودّعها منذ قرابة النصف عام، حيث بيت العائلة التي مزّقَها الترحال وتوزعتها المنافي...

حين فتحَ «نورس» عينيه، بعد أن ازدحم رأسه بالعديد من الكوابيس كعادته، وكالمعتاد كانت شرطة الحدود أبطال تلك الكوابيس، وجد أن الظلال صارت أقل كثافة، تماماً مثل حرارة الشارع والرصيف، وقد مالت الشمس صوب الغروب قليلاً، وصارت حركة المارة أكثر كثافة... شاهد كلباً يرفع ساقه ليتبول قريباً منه، رفع بصره ليتفحص الطرف الآخر للحبل المربوط إلى رقبة الكلب، فشاهد فتاة عشرينية ترتدي شورتاً قصيراً بلون السماء وفانيلا بلون الكلب دون كمّين، وبين شفتيها سيجارة يبدو أنها أُشعلتْ للتو، ابتسم لها وفي عينيه رغبة السؤال عن سيجارة تجود عليه بها لتطفئ ظمأ التدخين الذي لازمه منذ خمسة أيام، لكنه أحجم عن السؤال بوخزة من كرامته، واحتفظ بالابتسامة. نظرت الشابة صوبه باشمئزاز وغادرت ساحبة كلبها بعدم راحة واضحة...

يبدو أن الأرصفة قد امتصت طاقته، وصار يستيقظ من النوم متعباً خائر القوى، ذلك ما فكر به الشاب العشريني الفار من الخدمة العسكرية الإلزامية، خوفاً من أن يَقتل روحاً بشرية لا ذنب لها إلّا أنها ولدت على أرض لا تجيد الحرب، وتحترف دور الضحية، مثل ناسها تماماً...

حمل حقيبته على ظهره ودخل «جادة المتحف» متوجهاً صوب اللاجهة، فقتل الوقت صار مهنتهُ التي لم يحترفها من قبل، عليه أن

يقتل خمسة أيام بنهاراتها ولياليها حتى يحين اللقاء مع المهرّب الذي سيعبر به الحدود صوب ألمانيا كما وعده، وكما تم الاتفاق عليه منذ قرابة الأسبوع.

ما هي إلّا بضع خطوات حتى انتبه إلى أن الشارع عامر بالمكتبات، دكاكين متجاورة بواجهات زجاجية أنيقة تعرض المئات من الكتب القديمة. وحين توسط «الجادة» نظر صوب اليسار حيث الضفة المقابلة، ليشاهد بناية بيضاء رائعة التكوين وقد أنيرت بأضوية بيضاء منحت مسحة من الجمال المضاف عليها، ثم عرف من خلال يافطة كبيرة منسدلة على الجزء الأيمن من البناية، أنها بناية المتحف الوطني المجري، حيث كانت تلك اليافطة تعلن عن معرض فريد من نوعه، عنوانه «الثقافة والحرب» يستمر لثلاثة أشهر فقط... أطلق «نورس» ضحكة عميقة وقال في سريرته منذ بداية الخليقة والحرب تكره الثقافة، فما الذي سيطرحه المعرض لزائريه؟. حين ذاك، تلبسه شعور «المكتشف» وهو يردد كلماته التي شعر بتأثيرها المُبهج، وكأنه تأكد من سلامة تفكيره وأنه ما زال محتفظاً بقدرته على تحليل الأمور بشكلها الواقعي والصحيح، رغم مأساوية الوضع الذي يعيشه، فضحك لذلك «الاكتشاف»، لكنه ما أن عاد بنظره صوب جهة المكتبة المقفلة التي يقف أمامها، رافعاً رأسه إلى الأعلى حتى أطلق ضحكة أكثر صخباً، حين اصطدمَ نظره بـ «رليف» رخامي عتيق تعتليه صورة منحوتة لشخص يبدو أنه عاش الماضي بمرارة وقلق، نظر إلى الوجه المنحوت فوجده متجهماً، فقال له بصوت مسموع: «لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة، هل أنت لاجئ سوري وكل

شعب المجر يكرهك وينظر إليك بازدراء؟» ثم حاول أن يقرأ الكتابة الممزوجة الحروف، المنقوشة أسفل الوجه المنحوت تماماً، لكنه لم يفلح إلا بتهجي الاسم «گَرْگَي تْسوتْسور 1800 ـ 1866» أطلق ضحكة أخرى رغم احتفاظه بسأمه وضبابية وجهته، أخرج هاتفه النقال، وكتب في خانة البحث الاسم المنقوش، عله يجد أية معلومة عنه، دام وقوفه ناظراً صوب شاشة الهاتف دقائق معدودة، ثم استدار مكملاً طريقه، لكنه حين خطا بضع خطوات، انتبه إلى إشارة شاب ضخم متورد البشرة حليق الرأس يفترش الأرض، فتوقف قبالته تماماً وهو ينظر إلى ذراع الشاب الممدودة باتجاهه وحركة السبابة والوسطى من كفه تشيران صوبه، وما أن توقف نورس، حتى سحب الشاب ذراعة لينقر بإصبعيه على رقبته جهة اليمين، ابتسم له نورس وأعرب بإشارة من رأسه على أنه لم يفهم إشارته، فقال الشاب بصوت مسموع وهو يربت بكفه على الأرض: «فودكا... فودكا...» في تلك اللحظة فكر نورس بأنه ربما وجد الوسيلة التي يقتل بها بعض الوقت، وحاول أن يقول بضع كلمات بالإنكليزية وهو يجلس إلى جانب الشاب الذي اتسعت ابتسامته، لكنه لم يُبدِ أي تجاوب مع كلمات ضيفه الذي استقر بثقل جسده على الأرض...

ربت الشاب على ركبة نورس اليسرى وقال له جملتين لم يفهم منهما شيئاً، لكنه حاول أن يحزر بأن الشاب أراد أن يعرب عن سعادته كونه حظي برفيق يشاركه الشرب... قَدَّم الشاب قنينة الفودكا التي كانت بيده وكانت قد فقدت الربع تقريباً. مسحَ نورس فوهة القنينة واحتسى قليلاً منها، لكن الشاب دخل في نوبة ضحك عارمة،

وحين سأله نورس، عن سبب الضحك بهذا العمق، مستخدماً إشارة من يده اليمنى وارتفاع حاجبيه وبعض كلمات بالعربية، عند ذاك، حاول الشاب أن يشرح له، أن الفودكا تقتل البكتيريا، ولا داعي لمسح الفوهة... فهم نورس على الفور ما قاله الشاب بمساعدة كلمة «بكتيريا» ودخل هو الآخر في نوبة ضحك، انتعشت لها أسارير الشاب الحليق الرأس الذي سارع إلى تقديم سيجارة من النوع الطويل، والتي سيعرف نورس فيما بعد أنها واحدة من أسوأ السجائر البولونية، لكنه تمتع بها، وتمتع بثلاث غيرها بعد أن غابت عن أصابعه السجائر لخمسة أيام...

استمرت جلسة نورس مع الشاب الحليق الرأس لأكثر من ثلاث ساعات، شربا خلالها قرابة القنينة والنصف من أسوأ أنواع الفودكا المحلية، وما أن مال الشاب جانباً ليدخل في نوم عميق، حتى قام نورس واتجه يميناً ليكمل مشواره نحو اللاهدف...

خمسون خطوة ابتعد بها عن جليسه السابق الذي أصبح روحاً ثملة نائمة بوداعة، كانت كافية ليعبر شارع «كالفن» لتصير مقهى «Intenzo» قبالته... كانت الكراسي والطاولات متوزعة بانتظام على الباحة المقابلة لباب المقهى، حاول أن يتخذ من أحد الكراسي مقعداً له، حيث ازداد شعوره بالتعب وثقُل جسده بسبب الكحول، لكنه تذكر أن الـ«فورنتات» القليلة التي بجيبه، لا تسمح له بذلك، فنظر إلى اليمين ليشاهد تمثالاً نحيلاً من البرونز، اتجه صوبه ليشاهد رجلاً برونزياً يرتدي معطفاً لم يرَ مثله من قبل، ويحمل على ذراعه اليسرى كتاباً ضخماً كما يُحمل الطفل الرضيع، وحين تمعّنَ في

وجه التمثال شاهده ناظراً إلى الأمام بصرامة، فحوّل «نورس» نظره باستدارة متعثرة من جسده ليكتشف الجهة التي ينظر إليها التمثال، فوجد أمامه كنيسة بواجهة بيضاء تعلوها يافطة صغيرة نُقشتْ عليها ثلاث كلمات لم يفهم معناها... في تلك اللحظة شعر «نورس» بأن الدوار في رأسه والتعب، صارا يزدادان مع مرور الوقت، وأن جسده صار أثقل مما تستطيع ساقاه حمله، فاستدار صوب التمثال، وحين واجهه، قال مبتسماً بوجه التمثال: «يبدو أنك غاضب على الكنيسة أيها الرجل...» ثم اتجه بنظره صوب الأسفل باحثاً عن أي دالة تدله على شخصية صاحب التمثال، فشاهد «الشاهدة» الخاصة بالتمثال وقرأ «Kalvin Janos 1509_1564». رفع نظره صوب وجه التمثال وقال متسائلاً: «هل تسمح لي بالجلوس عند قدميك يا سيد كالفن؟» ثم ابتسم وهو يهوي بجسده صوب الأرض وهو يردد ساخراً كلمات الشكر للسيد كالفن الذي منحه شرف الجلوس عند قدميه... اتكأ برأسه على قاعدة التمثال عاكفاً ساقيه إلى جانب عجيزته جهة اليسار، مصوباً نظره صوب الكلمات الثلاث فوق باب الكنيسة البيضاء، ولكنه سرعان ما أغمض عينيه.

انفتح باب الكنيسة، فتدفق شعاع مبهر استمر لثوانٍ حتى اختفى بظهور رجل برونزي يرتدي معطفاً طويلاً يحمل على ذراعه اليسرى كتاباً ضخماً كما يحمل الطفل الرضيع. وقف أمام نورس مبتسماً ثم قال متسائلاً: «ما الذي تفعله هنا أيها السوري المسكين؟». أصابت «نورس» الدهشة وتسمّر نظره داخل عيني الرجل، وحين تحولت ابتسامة الرجل إلى قهقهات مسموعة، قال «نورس» دون أن تفارقه

دهشته: «انظر إلى تلك الكلمات الثلاث التي لا أعرف معنىً لها!!»
التفت الرجل البرونزي صوب الكنيسة مبتسماً ورفع بصره فوق بابها، وقال: «الله هو الحقيقة» ثم عاد بنظره صوب نورس وسأل ضاحكاً: «ألا تعرف هذه الحقيقة؟» رد نورس وهو يبادل الرجل الابتسامة: «أنا أعرف الله، ولا مشكلة بيني وبينه، ولكن الذي لا أعرفه، هو سبب الكره الذي يقابلني به البشر الذين خلقهم الله!!... لماذا يكرهني الناس هنا؟»

وضع الرجل كفه اليمنى على كتف نورس بينما ظل محتفظاً بكتابه في اليسرى، وقال مربتاً على كتفه: «لا عليك، ما من أحد في هذه الدنيا إلا وذاق بعضاً من كُره الآخرين...»

«ولكن لماذا؟» قاطعه نورس متسائلاً، لكن الرجل أشار بيده طالباً منه التزام الصمت، ثم نظر بعيني نورس وكأنه يبحث عن عمق روحه وقال: «أنا أيضاً كرهني البعض من البشر، وقد ذقتُ من كراهيتهم ما هو أكثر مرارة من شعورك الذي قسّى ملامح وجهك الجميل... حتى الله، كنت أعتقد أنه يكرهني حين حرمني من والدتي حالما ولدتني، لقد عشتُ دون أن أتذوق حنان الأم، لذا كثيراً ما رددت، أن خالقي مستبد لا يعرف الرحمة، كونه حرمني من أمي...».

«لكن الناس يحبونك، وقد أطلقوا اسمك على العديد من الشوارع في عواصم أوروبا، وهذا التمثال لك، وهذا الشارع باسمك، حتى الكنيسة تحمل اسمك...» قال نورس هذا مقاطعاً، لكن الرجل أشار إليه مرة أخرى طالباً منه الإصغاء حتى يكمل كلامه، وما أن صمت نورس حتى قال الرجل البرونزي: «صحيح، لكن كل ذلك

حدث بعد أن مضت سنوات طوال على موتي، وما بات للحب أو الكراهية أي حضور مؤثر...» صمت الرجل قليلاً وقال مبتسماً: « هناك من أطلق مقولة رائعة، سمعتها بعد سنوات من موتي، والمقولة تقول: «إن الإنسان الغربي المعاصر من ابتكار كالفن»... تصور أن هذا التحضر والرقي الذي وصل إليه الإنسان الأوروبي، هو نتيجة لأفكاري والقوانين التي كنت أناضل من أجل تطبيقها، من خلال دعوتي إلى بناء مجتمع قائم على الحرية المثالية... ورغم ذلك، فقد تم طردي من جنيف، وقبل ذلك بسنوات، حين كنتُ طالباً، لم يحبني أحد من زملائي، كوني متحفظاً وغير اجتماعي كما كانوا يظنون.. وحين مُتُّ، دفنتُ بلا مراسم، ولا أحد يعرف لي قبراً، فقد دفنت في مكان مجهول... ترى أين؟...»

«مهلاً... مهلاً... من هذا الذي يقف خلفك وينظر صوبي بكراهية؟» قال نورس ذلك مقاطعاً كلام الرجل البرونزي، حيث شاهد رجلاً متوسط القامة، ممتلئ الجسد، خفيف الشعر عند هامته، طويله من الخلف يصل حدود كتفيه، كان يطلق صوبه نظرات حادة تشير إلى غضب وعدم رضا واضحين. عند ذاك قال السيد البرونزي مبتسماً دون أن ينظر إلى الخلف: «إنه الشاعر واللغوي الشهير «گَرْگَي تْسوتْسور» الذي سخرتَ من تجهمه وأنت تنظر إلى المنحوتة التي تخصه، حين كنتَ في طريقكَ إليّ. هل تذكر طبيعة الكلمات الساخرة وأنتَ تطلقها بوجهه، هل تريد أن أكررها على مسامعك؟... «لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة، هل أنت لاجئ سوري وكل شعب المجر يكرهك وينظر إليك بازدراء؟»... كانت كلمات قاسية عليه وقد اشتكى لي انزعاجه وألمه الذي سببته كلماتك...« قاطعه نورس

محاولاً الاعتذار: «ولكنني لم أقصد الإساءة، فقد كنتُ حزيناً مستاءً، وربما كان ذلك وراء...»

«لا عليك...» قال الرجل البرونزي مبتسماً، وأضاف: «هو الآخر يشبهنا، يا رفيق حزن الكراهية... لقد أصبحنا ثلاثة، ينتمي كلٌّ منا إلى عصر مختلف، لكن الكراهية قد وحدتنا، وها نحن نشكو آلامنا لبعضنا...»

«أرجوك، قل لصاحبك أن يكف عن النظر إليَّ بهذه الطريقة، فنظراته المؤنبة تكاد ترعبني...». قال نورس شاكياً إلى الرجل البرونزي الذي التفتَ صوب « تْسوتْسور» ووضع يمناه على كتفه، فابتسم الرجل واختفى. تنهد نورس وأراد أن يشكر الرجل البرونزي، لكنه رفع يده طالباً من نورس الإصغاء، فقال: «هو الآخر عانى من الكراهية، هذا الشاعر المجيد، واللغوي المهم الذي دَرَس ويَدرس كل طلبة الجامعات معجمه اللغوي حتى يومنا هذا، قد عانى الظلم والكراهية والتهميش...»

«لكن أين اختفى؟... لماذا طلبتَ منه الرحيل؟... أُريدُ الاعتذار منه...» قال نورس بضمير مكلوم...

«هون عليك أيها الشاب النبيل، فهو ليس بحاجة إلى اعتذارك، هل نسيت أنه ميت؟...» أطلق الرجل البرونزي ضحكة صاخبة دون أن تتغير ملامح وجهه، كانت القهقهات تخرج من فتحة فمه كما يصدر صوت المذياع، فقابله نورس بضحكة مجاملة، ثم ما لبث أن قال الرجل البرونزي: «لم تكن الكنيسة راضية عن نشاط گَرْگي تْسوتْسور» الأدبي ونمط حياته، فأبعدوه عن بشت ـ بودا إلى الريف وأرغموه على اتباع الحياة الكنسية الصارمة بينما كان يوشك أن

يصبح رئيساً لتحرير واحدة من المجلات الأدبية الناشئة. اعتكف في عزلته الريفية على دراسة علم اللغة فغدا من أعلام اللغويين، فأوكلوا إليه تحرير معجم اللغة المجرية، مما مكنه من العودة إلى «بشت» دون أن يُخَفِف ذلك من ضغوطات الكنيسة. لكن مصادرة دواوينه ذات الحس الوطني الواضح وتكرار محاسبة الكنيسة له دفعته إلى مواقع أكثر راديكالية، وغدت أشعاره ملهمة للثوار، وكاد يواجه الحكم بالإعدام بعد فشل الثورة، ثم حكم عليه بالسجن لستة أعوام، وواصل كتابة المعجم وهو في السجن. فكيف تراه الآن يا رفيق القهر وألم الكراهية؟»

«عطشان... أريد شربة ماء رجاءً» قال ذلك ثم شعر ببرودة تجتاح وجهه وتتسرب إلى عنقه وصدره، وما أن فتح عينيه، حتى شاهد ثلاثة من الشرطة المجرية أمامه يحاولون إعادة الوعي إليه...

«أين أنا؟... أين ذهب السيد كالفن؟... أيها الرجل البرونزي، أين أنت؟...» قال نورس ذلك متمتماً بصوت مسموع، فسمع من يجيبه بلغة عربية مفهومة:

«أنت في مركز شرطة بودابست أيها الشاب السوري... لماذا تنام في الشارع مثل المشردين؟... ألا تعرف أن ذلك يعدُّ مخالفة للقانون؟». حاول نورس أن يتبين مصدر الصوت فوجد رجلاً قصيراً يقف خلف الشرطي الذي أمامه مباشرة... نظر صوبه بعد أن مال برأسه جهة اليمين، وما أن التقت نظراتهما حتى طلب نورس من السيد المترجم كما عرّفَ عن نفسه، شربة ماء وهو يشير إلى بلعومه إشارةً على جفافه.

أمر المترجم القصير القامة، أشيب الشعر قصيرهُ، بجلب شربة ماء للشاب، وأثناء ذلك سأله مشيراً إلى الشرطي الثالث الذي جلسَ للتو خلف مكتبه: «المحقق، السيد «شاندور» يريد أن يسألك بعض أسئلة، هل أنت مستعد، أم تراك ما زلت ثملاً؟». هز نورس رأسه علامة الموافقة، وعلى إثرها سمع كلاماً هنكارياً مقتضباً، وما أن صمت السيد «شاندور» حتى لاحظ ابتسامة ارتسمت على وجوه الجميع، تلك الابتسامة التي سرعان ما تحولت إلى ضحكة خفية... انطلق صوت المترجم مختنقاً بضحكة دفينة قائلاً:

«يرجو السيد المحقق أن لا تكون قد كرهتنا، فعلامات الاشمئزاز واضحة على ملامحك». حاول نورس أن يقول شيئاً، لكن المترجم لم يمنحه الفرصة فأضاف طارحاً ما سأل عنه السيد «شاندور»:

«كنت ثملاً ومستغرقاً في نوم عميق كالقتيل عند تمثال «كالفن»، لماذا كنت تضع سماعات الهاتف في أذنيك؟... هل كان صوت المارة والشارع يزعجك؟» انفجر الأربعة في ضحك صاخب، حاول نورس مجاملتهم بابتسامة متشنجة، ثم أوضح:

«أعتقد أنني كنتُ أسمع قصة الرجل البرونزي صاحب التمثال».

(2)

مدينة الخبز

«بلدة الشبابيك»

في بلدة الشبابيك، حيث البيوت الواطئة والموسيقى، وعصافير النخيل المتجاور على ضفتي النهر العابق برائحة الآس والنعناع، وقبل دقائق من بزوغ الشمس، ارتقت «فيروزة» الساحرة العينين، السُّلَّم قاصدة سطح الدار حيث تنورها المستعر بأعقاب سعف النخيل. جلستْ إلى جانب «طشت» عجينها الذي كانت تحمله على رأسها... وبعد أن قطعت العجين إلى كراتٍ بحجم كفها، راحت تصنع مما علق بكفيها، كرات صغيرة من العجين، تنثرها على سطحِ الدار طعاماً للعصافير التي كانت تنتظرها كعادتها كل صباح...

فاحت رائحة الخبز لتلف أجواء بلدة الشبابيك، فقد استعرت أغلب «تنانير» البلدة فوق سطوح البيوت الواطئة، والتصقت أقراص العجين على جدران أفران الطين الساخنة بأيدي نساء البلدة اللواتي أطلقن أغنياتهن المتغزلة بالمطر والطيور ولقاء الشبابيك... عذراوات وحوامل، فتيات وزوجات حديثات عهد بالحب، أصابع

«ترفة» مزينة بحبات الدقيق وبعض بقايا عجين ملتصق على الأكف التي راحت تصفّق مبتهجة ورقائق العجين تستطيل بين الراحتين وكأنها تعلن عن فرحها المنتظر لنضوج لقمة ساخنة من شأنها أن ترسم علامات الرضا على وجوه الأطفال والعجائز الذين ما زالوا يتقلبون في فراشهم بعد أن أيقظتهم بسعادة رائحة الخبز الساخن.

رائحة الخبز، تشير أيضاً إلى عودة الرجال والشباب من رحلة صيدهم حاملين شباكهم على أكتافهم، ومن قبضاتهم تتدلى السلال المصنوعة من «خوص» سعف النخيل وفي داخلها صيدهم، السمك الذي ما زال بعضه ينتفض بحركات تناشد الخلاص... حين ذاك تكون الشبابيك قد أشرعت لتستقبل أشعة الشمس، وتشرق وجوه النساء والفتيات برقابهن الطوال وضفائرهن المجدولات برائحة الخبز، مبتسمات بوجه الجارات حيث الشبابيك المتقابلة، ينظرن تجاه البحر البعيد للتأكد من وصول الأحبة...

«خلف كل أصيص ورد، على دكة شباك... عاشقة تنتظر».

تعود العصافير إلى أعشاشها متخمة بكرات العجين وذرات الدقيق وكسر الخبز الناشف مما تبقى من وجبة الأمس، فقد دأبت النسوة على إطعام عصافير بلدة الشبابيك قبل أولادهن، إلّا أن عصافير «فيروزة» الفتاة الساحرة العينين، تبقى قريبة منها، فليس هناك من يعكر فرحها، ولا مسافة شاسعة تفصل السطح عن أعشاشها، فالنخلات الثلاث وسط دار الفتاة كانت المأوى الآمن لأعشاشها...

«فيروزة» جميلة البلدة، العصية والبعيدة عن منال كل من عشقها، أو حلم بدفء قبلة من شفتيها المكتنزتين، فما من شاب في البلدة

وقع بصره عليها أو سمع بها إلّا وعشقها، فالجميع يعشق «فيروزة»، ولكن لا أحد يجرؤ على خطبتها. «فيروزة» التي اكتسبت اسمها من لون عينيها الفيروزيتين، هي الابنة الوحيدة لـ «نبهان» الرجل العجوز الذي فقد نور عينيه منذ زمن ليس بالبعيد، والذي كان أفضل «صاعود» نخيل في البلدة، فما من نخلة تنكر فضل يدي نبهان في تشذيبها وتلقيحها، وجزّ عراجينها وقت القطاف. نبهان الذي لم يتزوج قط، كما يعرف أهالي بلدة الشبابيك، أتى قبل عشرين عاماً إلى البلدة مع بداية أحد الصباحات، تماماً عند انتشار رائحة الخبز الساخن وعودة الصيادين، بعد سفرة دامت لأكثر من شهر، وعلى ظهره حيث خُرج الأمتعة، طفلة بلون الورد فاحمة الشعر وقد أتمت شهرها السادس، كما خمّنت نساء البلدة اللواتي ما أن نظرنَّ إلى عينيها حتى فزعن، وصاحت إحداهن مندهشة: «رباه!! كيف يكون لطفلة عينان من حجر الفيروز؟» نهرها نبهان وتمتم بوجهها من شرّ كل حاسد حقود، وأعلن بأنها ابنته التي توفيت والدتها أثناء الولادة، بعد عام كامل من زواجهما الذي تم في بلدة مجاورة.

لا أحد في «بلدة الشبابيك» أعلن عن قناعته برواية نبهان، خصوصاً النساء اللواتي صرن يحيكنَّ قصص وحكايات مما أجاد به خيالهن الخصب حول الطفلة ووالدها المزعوم، وكانت أكثر القصص شيوعاً، تلك التي تشير إلى أن لون عيني الطفلة واتساعهما تؤكدان على أنها ابنة ساحرة تنحدر من فصيلة الذئاب، تعرّفَ عليها نبهان في إحدى سفراته للمدينة، حيث التقى بها وسط غابة النخيل والنارنج التي تتوسط الطريق إلى هناك، ذلك ما كانت النساء تتناقله،

فقد كنَّ يمتهن القيل والقال ولا يخشين كثيراً أو يكترثن بآراء من يخالفهن الرأي... ورغم نعتهن «فيروزة» بلقب «الجميلة الساحرة» لكنهنّ ما كنّ لينعتنها أبداً بذلك في حضرة أزواجهنّ، فقد كان ذلك الاسم حكراً على أحاديثهن النسائية المطلة من الشبابيك أو التي كانت تتم تحت السقوف الطينية الواطئة... إلا أن صانعة التنانير كان لها رأي آخر، كثيراً ما شاكست به نساء البلدة، فهي الوحيدة التي أعلنت عن قناعتها برواية نبهان، وكانت غالباً ما تُقرّع النساء قائلة: «لا تنظرن إلى عيني الطفلة فقط، تمعنوا جيداً بملامحها، فإنها تشبه الصاعود نبهان تماماً حتى طولها الفارع يشير إلى طول أبيها...». لكن النسوة لم يقتنعن برأيها كونه يفسد متعة أحاديث الشبابيك.

رغم ذلك، كانت فيروزة تعيش حياة طبيعية هادئة، ولم تكتم يوماً حبها لبلدة الشبابيك واعتزازها بالانتماء لها، وكانت اجتماعية من طراز خاص، فما يمرّ نهار دون أن تزور أو تستضيف إحدى الجارات أو أكثر، فكل من عرفها أحبها، وكل من عرفها أحب أحاديثها ورجاحة عقلها، فقد كانت كمعالج روحي يستقبل بحب اعترافات من يقصده...

لم يكن «سلوان» عازف الناي وابن بائع الدقيق مشاكساً، لكنه كان عاشقاً، ووراء ذلك يكمن سبب الخلاف بينه وبين والده الذي يستشيط غضباً كلما أعاد سلوان على مسامعه، رغبته بالزواج من «فيروزة»... كان الشاب عازف الناي، الذي كان يوزع أكياس الدقيق على بيوت البلدة بإيعاز من والده، يعرف تعاطف «البهية» صانعة التنانير مع «فيروزة» وقصة أبيها، لذا كان يلتجئ إليها حين تضيق

به السبل، ويشتد الخلاف بينه وبين والده الذي طالما ردد حجته الوحيدة على مسامع ابنه العاشق: «لا أحد يرضى الارتباط بفتاة لقيطة...» والكلمة الأخيرة كانت أكثر ما يؤلم العاشق، وكثيراً ما كانت السبب في انهمار دموعه وهو يشكو ألم تلك الكلمة بين يدي «البهية» التي فتحت له أبواب روحها وصارت تتلمس أوجاعه بحنان كان في أمس الحاجة إليه...

***

حين تُغلق الشبابيك، معلنة وقت السكون وانتظار صباح جديد عابق برائحة الخبز، تنطلق أنغام ناي العاشق معلنة لوعتها، عند ذاك تكون نظرات «الفيروزة» قد لامست القمر، وبدأت ترسل رسائل شوقها إليه، ليوصلها إلى حبيبها عازف الناي، فهي على يقين بأن نظرات من تعشق تتجه صوب القمر أيضاً في اللحظة نفسها، وحين ينقطع أنين الناي، تحتضن «الفيروزة» لهفتها للقاء «سلوتها» ـ كما كانت تسميه ـ خلسة عند «البهية» صانعة التنانير، التي أقسمت على مساعدة العاشقين كي لا تموت الضحكات والموسيقى في البلدة.

«البهية» التي تمتلك بيتاً طينياً وسط أرض واسعة بعض الشيء، مسورة بسور طيني هو الآخر، كانت قد امتهنت صناعة التنانير بعد أن ابتلع البحر زوجها، وصارت تنانيرها الأفضل في مدينة الخبز كلها، لا أحد يعرف من أين تأتي بطينها الفاخر، فقد كان متماسكاً بشكل ملفت جعل من تنانيرها عظيمة الصنع والجودة... تغلق شبابيك بيتها ليومين في الأسبوع، وتختفي، ثم تعود إلى فتح الشبابيك طيلة

الأيام المتبقية علامة على أنها مستعدة لاستقبال زبائنها، والحقيقة التي لم يكشفها سلوان عازف الناي لأهل البلدة، أن «البهية» كانت تستخرج التراب من داخل أرضها، فحين ابتلع البحر زوجها الذي كانت تعشقه، والذي تزوجته رغماً عن أهلها، وهربت معه من بلدتها البعيدة لتسكن بلدة الشبابيك منذ زمن بعيد، قررت أن تشارك زوجها حياته بعد الموت، فعمدت إلى حفر الأرض حيث باحة الدار الواسعة، لتقضي لياليها داخل الحفرة تناجيه وتغني له أغاني العشق، اعتقاداً منها بأن باطن الأرض كفيل بإيصال الصوت إلى الأرواح التي سكنت البحر، ومع مرور الزمن بدأت الحفرة تتسع، وصارت المرأة تتفنن بهندستها وتغليفها بسعف النخيل، لتشكل منزلاً جديداً صارت «البهية» تقضي داخله أغلب أوقاتها، لكنها حين انتبهت إلى أكوام التراب فوق سطح الأرض، أخذت تفكر بالطريقة التي تتخلص منه دون أن تكتشف نساء القرية بيت عشقها ومعبدها الجديد، فوصلت إلى فكرة صناعة التنانير وبيعها إلى نساء المدينة، وبذلك تكون قد تخلصت من التراب وأمنت لقمة عيشها...

ذلك البيت الطيني المنحوت حفراً داخل الأرض، والمفخور بنيران ظلت مستعرة لأيام، قبل أن تغلّفه «البهية» بسعف النخيل، صار ملاذ «الفيروزة» وحبيبها أثناء النهار، حيث يلتقي العاشقان، بعيداً عن أعين الوشاة وصانعي أقاصيص الغيرة، وكانت «البهية» تؤمّن لهما أسباب الراحة والاطمئنان... كانت «الفيروزة» من تأتي أولاً، تنزل الدرجات التسع لتصل زاوية صغيرة أطلقت عليها «المطبخ» لتعد

الشاي وتنتظر حبيبها، بعد ذلك يأتي سلوان مصطحباً نايه، وعيناه تحمل ملامح فضيحة لهفته التي تكتنزها روحه... يتناول أرغفة الخبز من يد «البهية» ويهبط إلى جوف الأرض ليلتقي حبيبته التي كان الانتظار يؤلمها وتكرهه...

في ظهيرة يومٍ غائمٍ عاصف، حيث أغلقت كل الشبابيك، ودخل الأطفال تحت نداء الأمهات الملح، إلى غرف البيوت الواطئة، كانت «الفيروزة» و«البهية» داخل البيت المفخور تحت الأرض ينتظرن قدوم عازف الناي ليتم اللقاء، هطل المطر مدراراً على حين غرة، وغضبت الرياح حتى كادت تطيح بنخيل البلدة وسقوف بيوتها الطينية، وصارت السماء ترعد ضاربة برقها قلب النهر، الذي استجاب إلى غضبها وفاض زاحفاً إلى بيوت المدينة، وذلك ما أعاق سلوان عن الالتحاق بحبيبته، وظن أن حبيبته قد التزمت بيتها هي الأخرى، لتكون إلى جوار والدها الأعمى، لكن القلق صار ينهش روحه...

في صباح اليوم الخامس للكارثة، وحين هدأ كل شيء وتوقف المطر، اختفت «الفيروزة» ولم تعثر النسوة على أثر لصانعة التنانير، وصارت لغز البلدة ومصدر العديد من الحكايات والأساطير... وصار ليل البلدة عابقاً بحنين عزف الناي الحزين الآتي من خَرِبَةِ «البهية» صانعة التنانير.

(3)

اسطنبول

«المُكتئِب الدانماركي»

ترجّلَ السيد راسموس من «الترماي» عند محطة «بايزيد» وسط اسطنبول. وكأنه يعرف وجهته تماماً، استدار نحو اليسار ليخرج من فتحة الرصيف الشرقية، وما هي إلا ثلاثين متراً بعد انفلات جسده من حاجز موقف المحطة حتى استدار يميناً ليدخل شارع «جيديك باشا» الضيق والمزدحم بالمطاعم والمارة... من يشاهد السيد راسموس وهو يسير في الشارع الضيق، يظن أنه يعرف المكان جيداً، لكنه في الحقيقة كان يتبع الرأس الصغير بشعره الفاحم والذي كان كثير الالتفاتة، والذي يبعد عنه قرابة العشرة أمتار... كان الصبي ذو العشرة أعوام قد أوكلتْ له مهمة توصيل السيد الدانماركي إلى بانسيون «بايزيد هان» بعد أن أوصله سائق التاكسي الذي أقله من المطار بعد أن أخذ منه مبلغاً كبيراً، إلى الفندق الخطأ، تجنباً من الدخول إلى منطقة «أقسراي» بشوارعها المزدحمة، بالسواح والضاجة بالمارة والسيارات وجمهرة من العتالين والمتسولين الذين ينتشرون بين المركبات وسط الشوارع...

«لقد غشَّكَ سائق التاكسي، سيدي». جملة قالها له موظف الاستعلامات السوري، وأضاف متأسفاً: «أعتذر منك سيد راسموس، على ما بدر من السائق التركي المحتال، رغم أنني لست بتركيا...» ثم نادى على صبي ووضع في يدة ورقة نقدية من فئة العشرين ليرة وطلب منه توصيل السيد إلى البانسيون حيث العنوان الصحيح المثبت في ورقة الحجز التي اشتراها السيد عبر الأنترنيت، حين كان في بيته الكائن في إحدى ضواحي كوبنهاغن.

سار السيد راسموس في شارع «جيديك باشا» منحدراً صوب البحر، ساحباً وراءهُ حقيبة سفر صغيرة، كانت تحتوي على جل أغراضه التي قرر أخذها معه في رحلته التي انتظرها لأكثر من أسبوعين بعد نصيحة الطبيب المعالج لحالته... ثلاثة قمصان، ومثلها لباس داخلي، وبنطلون إضافي لما يرتديه، وثلاث فانيلات، وقنينة ويسكي من فئة اللتر اشتراها من مطار كوبنهاغن، وثلاثة جوارب مختلفة الألوان، وفرشاة أسنان كهربائية مع شاحنها، وماكينة حلاقة خماسية الشفرات، وقنينة عطر بعبوة الخمسين ملليلتراً ماركة «شانيل ألورا»، ونعال اسفنجية حمراء اللون، وحقيبة صغيرة سوداء دسها بعناية فائقة بين طيات الثياب المطوية، وقد نسي معطر الجسم الذي اعتاد أن يرش شيئاً منه كل صباح، منذ عشرة أعوام حين كان يعمل مدرساً لمادة الفيزياء في مدرسة «سوهولت سكول» التابعة لبلدية «بغونذبي»...

هبط السيد راسموس منساقاً مع انحدار الشارع الضيق، متتبعاً الرأس الصغير الذي أمامه والذي غالباً ما يلتفت إليه مبتسماً وهو

يشير بيده باتجاه البحر، ليُفهِم السيد بأن البانسيون بات قريباً... لم يزعجه ازدحام الطريق بالمارة، ولا صعوبة السير على الرصيف نظراً لانتشار الطاولات والكراسي التابعة للمطاعم والمقاهي على جانبي الشارع، لكن الذي لفت نظره وأغراه على التوقف لأكثر من مرة، وجود كلاب بدينة مستلقية بشكل فاضح على الأرصفة وغالباً ما تكون قربها قطع متناثرة من طعام وعلب بلاستيكية تحتوي على الماء، إلا أنه في كل مرة يقرر الاستمرار في السير خوفاً من انقطاع الصلة بينه وبين الدليل الصغير الذي يسير أمامه...

توقف الصبي عند مدخل زقاق ضيق جهة اليمين، منتظراً السيد الدانماركي، الذي ما أن وصله حتى أشار الصبي إلى لوحة معدنية حمراء معلقة على ارتفاع مترين عند مدخل الزقاق، منقوش عليها اسم الزقاق باللون الأبيض «زقاق مسلم»، ثم سار أمامه مرة أخرى قرابة العشر خطوات ليقف أمام باب حديدي مغلق وحين نظر السيد راسموس أعلى الباب قرأ اسم البانسيون «بايزيد هان» فابتسم للصبي ودس في كفه ورقة حمراء من فئة العشر ليرات.

استُقبِلَ السيد راسموس بحفاوة من قبل «أشرف» موظف استعلامات البانسيون. كان شاباً مصرياً يتأتى بكلماته، نحيل الجسم خفيف الشعر أجعده. أخذ منه الورقة وراح يضرب على مفاتيح الكومبيوتر ثم طلب من السيد اللحاق به حيث الطابق الأول، بعد أن أخذ منه حقيبته ليحملها أمامه...

بعد أن فتح الشاب المصري باب الغرفة رقم ثمانية المجاورة للسلم، دخل السيد راسموس ماسحاً زوايا الغرفة بنظرة سريعة

باحثاً عن علامة الرضا، وسرعان ما التحق به الشاب المصري رافعاً الحقيبة بيمناه ليضعها فوق طاولة إلى جانب الباب مباشرة، ثم راح يشرح للنزيل محتويات الغرفة خصوصاً المطبخ الصغير وأدواته، وأثناء ذلك نظر أشرف بوجه السيد نظرة متفحصة، ليكتشف، أن السيد لم يعتنِ بحلاقة لحيته جيداً، فهناك شعرات متفرقة لم ينلها موس الحلاقة، خصوصاً أسفل شفته السفلى، وأن هناك شعراً أشقر كثيف داخل منخريه وأذنيه... ابتسم الشاب للسيد الذي ظل جامد الملامح متراقص النظرات، ثم وضع مفتاح الغرفة على الطاولة حيث جهاز التلفزيون وغادر بعد أن أرشد السيد إلى كيفية الاتصال تلفونياً إن كان بحاجة إلى شيء ما.

حالما أغلق «أشرف» باب الغرفة، اتجه السيد على الفور نحو الشباك، سحب الستارة بحركة واحدة سريعة صوب اليسار، ونظرَ إلى الأمام مخترقاً بنظره الزجاج الشفاف، ليصطدم نظره ببناية خربة بثلاثة طوابق غادرتها شبابيكها منذ زمن بعيد... الغريب أن لون الطابوق الأحمر قد شد انتباهه، حيث وجده غريباً مثيراً للاهتمام، ولم يدرك حينها أن ضوء الشمس المنسكب بواقحة ساخنة، منحته لون التوهج رغم ثوب الغبار العتيق الذي يلبسه لسنوات طوال، إلا أن تكور أبيض صغير كان ظاهراً على سطح الطابق الأول، الذي يبدو كأنه كان في السابق شرفة، قد أشار إلى تأثير الشمس الساحر، بعد أن تبين أن التكوير ما هو إلا قطة مسترخية في زاوية ظليلة، تأملها وحاول أن يجلب انتباهها بإطلاقه صفيراً متقطعاً لم يدم طويلاً، لكنها لم تحرك ساكناً...

«يا لسعادتها!!» قال ذلك في سريرته واتجه صوب خزانة الملابس ليتفحصها، وليودع بعد ذلك ملابسه القليلة داخلها، لكن تفكيره ظل أسير القطة البيضاء المنسدحة هناك، فصار كلما علّق قطعة من ملابسه اتجه إلى الشباك ناظراً إليها، ليعود بعد ذلك إلى حقيبته، يستخرج منها شيئاً ما، يضعه في مكان يختاره ثم يتجه صوب الشباك مرة أخرى، ولم يكف عن ذلك التحرك إلا حينما أخرج الحقيبة السوداء الصغيرة، مسكها بعناية ثم راح يجول بنظره في أرجاء الغرفة وكأنه يريد اختيار المكان الأفضل لها، وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى اقترب من طاولة الطعام التي كانت تشكل الحد الفاصل بين الغرفة وزاوية المطبخ ليسحب أحد الكراسي ويتخذ منه مقعداً، حينذاك فتح الحقيبة وأخرج منها زجاجة صغيرة وضعها عند زاوية الطاولة ليلحقها بزجاجة أخرى، وتلاها بأخرى حتى صار عددها خمس زجاجات متراصة في نسق واحد، ثم أخرج شريط حبوب تفحصه جيداً ووضعه إلى جانب الزجاجات وألحقه بعلبة كارتونية زرقاء اللون وأخرى صفراء... حين أفرغ الحقيبة الصغيرة من محتواها، كانت الطاولة قد استقبلت العديد من الزجاجات الصغيرة والعلب والشرائط التي تحتوي على أنواع مختلفة من الأدوية المسكنة والمهدئة والعلاجات الضرورية عند الحاجة...

حين اطمأنَ السيد راسموس على أغراضه، وأن كل شيء صار في مكانه الصحيح، سكب لنفسه قليلاً من الويسكي، واتجه صوب الشباك حاملاً كأسه بين أصابعه... أخذ رشفته الأولى متذوقاً طعم الشراب، فاستحسنه... لعق شفتيه وراح ينظر صوب

البناية الخربة، ليلاحظ أن الظل قد اتسع وأن القطة البيضاء ما تزال على تكورها، إلا أنه لاحظ أثناء ذلك، ثمة قطة أخرى سوداء بغرة بيضاء تقف على مسافة من القطة المتكورة، ناظرة إليها بتمعن... شدّهُ المشهد وصار مأخوذاً بحركة القطة السوداء التي تحاول الاقتراب من القطة البيضاء... وبعد فترة، انتبه خلالها بأن كأسه قد أُفرغتْ، وهمَّ راغباً في المزيد من الشراب، اقتربت القطة السوداء من الأخرى المتكورة، وصارت تشمها، ثم لعقتْ رأسها، لكن القطة المتكورة لم تحرك ساكناً، وفي لحظة خاطفة، هربت القطة السوداء بذعر، وكأن هناك من أرعبها... لاحقت نظرات السيد القطة الهاربة ليكتشف أن الخربة فاقدة الشبابيك، تحتوي على لفائف كبيرة قد تكون جلوداً أو مطاطاً، بالإضافة إلى الكثير من إطارات السيارات القديمة، وأشياء أخرى لم يتبينها جيداً، فقد كان العمق مظلماً.

شعر بوخزات في معدته فتذكر أنه لم يذق الطعام منذ فترة طويلة، فقرر النزول إلى الشارع ليتناول طعامه بعد أن يُكمل احتساء كأسه الثانية، دون أن يفلت مشهد القطة المتكورة والأخرى الهاربة من تفكيره...

في طريقه إلى البانسيون، حين كان يتبع خطوات الصبي الدليل، شاهد مطعماً لبيع السمك المشوي... وحين خرج من البانسيون منساقاً وراء جوعه ورغبته الشديدة إلى الأكل، بعد أن أفرغَ كأسه الثانية في جوفه، اتجه قاصداً ذلك المطعم، وفي الطريق إليه أوقفه تباعاً عمال المطاعم طالبين منه الدخول إلى مطاعمهم وهم يحملون

ورقة تحتوي على صورٍ لأطباقٍ شهية كما يعتقدون... أزعجه ذلك، فقد كانت رائحة السمك المشوي المتخيلة، تشده إلى هناك...

جلس السيد راسموس إلى إحدى الطاولات المنتشرة على الرصيف، بعد أن أخذته العاملة الأوزبكية البيضاء، ذات القوام الطويل الرشيق، إلى معرض الأسماك الصغير داخل المطعم، ليختار نصف سمكة «سلمون» طالباً شيّها على الفحم، وبمجرد أن جلس، سألته العاملة إن كان راغباً في شرب شيء معين، فطلب قنينة بيرة. ابتسمت له المرأة، وأخبرته بأن المطعم لا يقدم البيرة، لكنها أشارت على الفور بأن هناك إمكانية توفير ما يرغب به من المطعم المجاور، فوافق، وطلب قنينتي «أفيس» من فئة النصف لتر، بعد أن مد يده في جيبه وأخرج ورقة من فئة الخمسين ليرة وناولها لها...

بعد دقائق وضعت العاملة قنينتي البيرة وكأساً زجاجية، أمام السيد راسموس وحاولت أن تعيد له بقية النقود لكنه أعادها لها بكل تهذيب، وما أن شرب كأسه الأولى، حتى جاءت له المرأة بصحن السمكة المشوية على الفحم مع السلطة والبصل الطازج، فباشر بالأكل على الفور...

حين نظر إلى شكل عمود السمكة الفقري، تذكر خزفية بيكاسو التي أهدتها له عشيقته الأخيرة، كان على شكل طبق من الخزف مطبوع بوسطه سمكة بيكاسو الشهيرة، بمناسبة عيد ميلاده منذ سنتين، كانت تلك، المرة الأخيرة التي يحتفل بعيد ميلاده، فقد هجرته عشيقته بعد أن تعرفت على شاب تركي مفتول العضلات يصغرها بعشرة أعوام، وذلك ما سبّب للسيد راسموس أزمة نفسية

حادة دخل على إثرها بحالة من الكآبة جعلته كثير التردد على الأطباء النفسانيين، والذين كانوا السبب المباشر في تناول السيد الدانماركي الكثير من المهدئات والمسكنات لآلام وهمية تكون مبرحة في أحيان كثيرة... وكان ذلكَ كفيلاً بتذكر قطة عشيقته «سكلينة» البيضاء بغرة سوداء معينية الشكل تتوسط المسافة بين عينيها الزرقاوين.

مع انتهائه من تناول وجبته، كان قد كرع آخر ما تبقى من كأس البيرة.. نهض سائلاً عن مكان مغسلة اليدين، فأرشدته العاملة الأوزبكية إلى الزاوية فتوجه نحوها، لكنه سرعان ما عاد إلى العاملة متذمراً، محاولاً شرح امتعاضه من عدم وجود الماء الساخن، فأعطته قطعة ليمون وأرشدته إلى ضرورة دعك أصابعه بسائلها كي يتخلص من رائحة السمك... لم ترضه تلك المعلومة التي أجادت بها، فخرج من المطعم بعد أن دفع الحساب، وتوجه إلى مقهى «سارنج» المجاور ليأتيه النادل ويطلب منه «استكان» شاي...

في تلك الجلسة، وبعد أن أفرغ الشاي في جوفه، انتبه إلى المطعم الذي أمامه حيث الجهة المقابلة، قرأ اسم المطعم «حاجي عبد الله» وعرف أنه يقدم وجبات فطور شهية، فقرر أن يزوره صبيحة اليوم التالي...

غادر السيد راسموس مقهى «سارنج» بعد ساعة ونصف من جلوسه هناك، وصار يتأمل المطاعم والمحلات والأجساد البشرية المتحركة أمامه، ولم ينسَ الانتباه إلى الكلاب البدينة الممددة على الأرض بكل تخمتها وكسلها...

وكأنه جاء إلى غرفته على ظمأ، توجه إلى قنينة الويسكي وسكب له كأساً، بعد أن تأكد من إغلاقه لباب الغرفة... توجهَ إلى الشباك رغبة منه في استطلاع أمر القطة المتكورة، فوجدها على تكويرتها لكنها تحركت قليلاً نحو الجدار لتلتصق به. وحين عاد إلى الشباك مرة أخرى بعد أن سكب الكأس الثانية، شاهد ثلاث قطط متشابهة، ينظرن نحوه من خلال الفتحة التي كانت شباكاً فيما مضى... إلا أن القطة البيضاء المتكورة لم تحرك ساكناً، فصار ينقل نظراته بين القطط الثلاث والتكوير الأبيض الذي ذكّره بـ «سكلينة» قطة عشيقته السابقة، ليرتحلَ بتفكيره بعيداً نحو الماضي ويتذكر أجمل ما كان يميّز عشيقته «كانت لا تطيق ملابسها، حين تكون داخل الشقة، تتعرى تماماً، وتقوم بأشغالها البيتية اليومية بشكل سلس وتلقائي وكأنها ترتدي ملابسها...».

شعر السيد الدانماركي بتعبٍ بسيطٍ بعد أن أفرغ كأسه الثالثة في جوفه، فقرر الارتماء على السرير، بعد أن تناول عدة حبات من قناني أدويته، ليرتحل إلى عالم عشيقته السابقة، مستذكراً أدق التفاصيل وأحبها إلى روحه...

كان الظلام دامساً حين وقف «راسموس» على حافة الشباك عاري القدمين، لكن السلك المعدني الرابط بين شباك غرفته وسطح الطابق الأول من البناية الخربة المقابلة حيث تقبع القطة البيضاء المتكورة، كان واضحاً، فقرر السير على السلك للوصول إلى القطة المتكورة، فقد اعترته رغبة عارمة لمداعبة فروتها، وقبل أن يشرع بالخطوة الأولى على السلك، شاهد عاملة المطعم الأوزبكية عارية

تماماً، تنظر إليه مبتسمة من الفتحة التي كانت شباكاً منذ زمن بعيد، صارت تناديه بيديها، مما شجعه على الشروع في السير على السلك المعدني، وكانت العاملة الأوزبكية الشقراء العارية تناديه مع كل خطوة يخطوها، فصار يطلق الضحكات مبتهجاً بتوازنه الرهيب وهو يسير على السلك بسلاسة، وحين وصل إلى الطرف الآخر، سحبته المرأة إلى الداخل، لكنه رفض وسحب المرأة إلى الخارج ليجلسا معاً إلى جوار القطة، التي صارت تنظر لهما بعينين ذابلتين، فأخبر المرأة العارية بأن القطة ثملة، حيث احتست العديد من كؤوس الويسكي قبل أن تنام... التصقت المرأة به وصارت تقبله، فوقف حاملاً المرأة العارية بين ذراعيه شاعراً بحرارة جسدها، حيث قرر أخذها إلى غرفته عبر السلك المعدني، ففعل... لكنه عند منتصف السلك، اكتشف أن المرأة التي بين ذراعيه هي عشيقته السابقة، فوقف مبتسماً يتأملها بفرح غامر...

في صباح اليوم التالي، كتبت الصحف التركية، عن انتحار سائح دانماركي منتصف الليلة الماضية وسط اسطنبول.

مكتبة الدكتور علي إسكندر الورثي

(4)

مدينة المعبد...

«قلادة أمينة»

منذ زمنٍ بعيد عرفت مدينة النهر، شاباً يرتدي السواد، قد اتخذ من غرفة طينية على شاطئ النهر بناها بيديه، مسكناً له، وقد امتهن حياكة «الحصران» من خوص سعف النخيل، وكانت الحصيرة التي تخرج من بين يديه متينة الصنع متماسكة بشكل لافت، مما زاد الطلب عليها من قِبل أهالي المدينة، حتى بات من النادر أن يخلو بيت من بيوتات المدينة من ذلك النقش المميز الذي كان يتوسط حصيرة الشاب، الذي يوحي إلى طائرٍ أزرق بذيلٍ طويلٍ أحمر وكأنه خارج من النار.

لكن الليل كان الحكاية، ففيه يعلو أنين عذب يستمر لدقائق حتى يبدأ بالتصاعد ليتحول إلى غناء أقرب إلى الترتيل أو الغناء الساحر المحبب، ومع مرور الزمن صارت المدينة تغفو على أنين وتراتيل الشاب، حتى صار الناس يلقبونه بـ «المبارك» وصاروا يقدمون له الطعام والمساعدات، وانتشرت بعد فترة شائعة تشير إلى طهرانية «المبارك» وقربه من الله... واتسعت غرفته الطينية لتصبح بيتاً يضم

باحة مسورة بسور طيني تنفتح عليها أبواب ثلاث غرف كبيرة سقوفها من خشب التوت وما صنعته يدا الشاب من حصران. حدث ذلك بعد أن قرر رجال مدينة النهر بناء بيت للمبارك كي يجبروه على الإقامة وعدم الرحيل من المدينة، ليبقى أيقونة المدينة وتعويذتها التي يتبارك بها أهل المدينة... وحين صار رجال المدينة ونساؤها يتجمعون في باحة بيت المبارك عند الغروب كي يستمعوا إلى تراتيله بصوته العذب وهو يقبع وحيداً في إحدى غرف داره الطيني، ولا يعودون إلى بيوتهم حتى ينقطع الترتيل، صاروا يطلقون على بيت المبارك «معبد المبارك».

«المبارك» الذي لا أحد يعرف اسمه الحقيقي، أتى مدينة النهر قادماً من مدينة بعيدة تقبع على ضفة نهر يدعى «زايندا» لذا كان يجيد السباحة وصيد السمك، وكثيراً ما أولمَ لبعض رجال المدينة موائد عامرة بالسمك المشوي المميز بنكهته الخاصة، حتى صار السمك الذي يقدمه «المبارك» يسمى بـ «السمك المبارك» الذي صار دواء «يشافي» جميع العلل... وصارت النساء تتقرب من «المبارك» ليشافيهن وأولادهن من بعض الأمراض أو ليضمن لهم مستقبلاً مريحاً حين يستجيب الله لدعائه وتضرعه...

يبدو أن أبناء مدينة النهر يتمتعون بمخيلة خصبة، لذا فقد نسجت مخيلتهم مئات القصص والحكايات عن المبارك ورحلته من مدينته البعيدة حتى وصوله مدينة النهر، لدرجة أن إحدى القصص قد أشارت إلى أن المبارك أتى مدينة النهر طائراً، حيث يمكنه الطيران ليلاً، وكثيراً ما غادر إلى مدينته الأصلية طائراً ليعود إلى مدينة النهر

في الليلة نفسها، وحكاية أخرى تشير إلى أن المبارك قدِمَ إلى المدينة مشياً على الأقدام في رحلة استمرت طويلاً، وقد شيد في كل مدينة يمر بها معبداً سمي باسمه...

في إحدى الصباحات الصيفية، وعند الفجر تحديداً استفاقت المدينة على صرخات أنثوية جزعة وصهيل حصان استمر طويلاً وكأنه يناشد الغوث، وحين اقترب بعض الرجال من الحصان الرمادي الفتي المبهر برشاقته وقوته... وجدوا رجلاً مُلقى على الأرض وإلى جانبه فتاة لم تبلغ الثامنة عشرة بعد، كانت تولول محتضنة رأس الرجل الطريح، وحين سألها البعض عن خطبها أخبرتهم بأن طائراً ضخماً قد حطّ على رأس والدها لثوانٍ، نقره نقرة واحدة على قمة رأسهِ وولى هارباً إلى كبد السماء، عند ذاك قرر الرجال حمل الرجل الطريح إلى المبارك حيث المعبد لينظر بأمره...

ثلاثة أيام كانت كافية لينتشر في مدينة النهر، خبر شفاء الرجل، بعد أن صارت ابنته تسقيه شراباً ساخناً من مغلي خليط أعشاب أعطاها إياها المبارك شارحاً لها طريقة الإعداد التي ظلت خافية على أهل المدينة، رغم أنهم كثيراً ما شربوا من ذلك الشراب فيما بعد دون أن يعرفوا سره... وما أن انتشر خبر شفاء الرجل، حتى رافقته قصة ظلت ألسن المدينة تتداولها زمناً طويلاً، حيث قيل إنه قدم هارباً مع ابنته من مدينة مطلة على بحيرة «هازار» الشاسعة والتي ينبع منها النهر العظيم.

في طريقه، وحين وصل إلى غابة تطل على مدينة «أميدا»، كان قد هدّهُ وابنته التعب وأخذ منه الجوع مأخذاً، صار يبحث عن شيء يقتات به، فوجد عشاً ضخماً يحتوي على ثلاث بيضات كبيرات،

فأخذ بيضتين وجعل منهما طعاماً له ولابنته، ليواصل سيره بعد ذلك معتمداً على ما يجده من نباتات وأوراق أشجار كان يعرفها جيداً، وقليل من الفاكهة رغم ندرتها. لكنه، وبعد مضي الشهرين على خروجه من داره التي كانت عامرة بالخدم والجواري، وحين وصل قرب أطلال المدينة العتيقة، حيث «قلعة باشطابيا» على ضفة النهر العظيم، شعر بطيرٍ ضخم يلاحقه، فانتبه له، وظنّ حسب ما سمعه من أساطير، أن الطائر يستهدف الفتاة العذراء، فحاول حمايتها عدة مرات مستخدماً سيفه الذي صار ينشّ به الطائر، ليستمر صراعه مع الطائر حتى اقترب من مدينة «المعبد المبارك» بمسافة يومين. حينذاك اختفى الطائر، واستطاع الرجل أن يستريح قليلاً من صراعه وقلقه... ولكن ما أن صار وسط المدينة عند الفجر، حتى انقض الطائر عليه وطرحه أرضاً، وذلك ما حشّدَ الناس حول الرجل الطريح على إثر صراخ ابنته وصهيل حصانه... تلك القصة التي لم يسمع بها الرجل أو ابنته إلا بعد مرور عام كامل على شفائه، صارت حديث الناس في أمسياتهم وجلساتهم الخاصة، خصوصاً بعد أن تزوج «المبارك» من ابنة الرجل الذي أهداها له شكراً وعرفاناً لإنقاذه من موتٍ أكيدٍ حسب ما يعتقد...

صار «معبد المبارك» مزاراً يؤمه الناس من كل مكان، وصارت المدينة تستقبل العديد من الزائرين، حتى انتعشت فيها التجارة وتعددت المهن، وصار أبناء المدينة في بحبوحة من أمرهم، وذلك ما غيّرَ اسم المدينة من «مدينة النهر» إلى «مدينة المعبد» حسب قرار اتخذه وجهاء المدينة وشيوخها...

مع مرور سنوات طوال، وتوارث الشيوخ من نسل «المبارك» على زعامة «المعبد» الذي صار مشيداً من الطابوق والإسمنت، واتساع باحته بعد أن تبرع صاحب البستان المجاور بقطعة أرض من بستانه إلى المعبد، الذي دخلتهُ للمرة الأولى وأنا في سن الخامسة حين اصطحبني والدي إلى هناك بغرض توسل الشيخ «سادر المبارك» على قبولي ضمن طلبة المدرسة التابعة له... كانت رهبة عظيمة تملكت روحي وأنا أتطلع إلى بنائه وأعمدته وساحته وتلك الألوان البراقة التي كانت الجدران تجود بها على نظر الزائر، كان المعبد بتكوينه وتفاصيله مثاراً للرهبة والدهشة، لكنني، حين وقفتُ إلى جانب والدي عند باب خشبي عتيق موارب، لفحني هواء بارد اقشعر له بدني، وتلبسني خوف لم أشعر به من قبل، خصوصاً حين دخلنا غرفة فقيرة الضوء والدفء... وما أن خطونا خطوات قليلة داخلها، حتى شاهدتُ رجلاً يفترش الأرض بلحية سوداء كثة، وحين نظر في عينيّ، ارتعبتُ وشعرتُ بارتجاف في بدني، وطفرتْ دمعة من عيني شعرتُ بسخونتها... حاول والدي سحبي من يدي باتجاه الرجل الجالس طالباً مني بصوت واهن أن أقبل يد الشيخ «سادر»، هكذا نطق والدي اسمه وكانت المرة الأولى التي أسمع بها ذلك الاسم، لكنني تسمرت في مكاني، وبدأت دموعي تنهمل بغزارة، وحين ألح عليَّ والدي صرتُ أبكي بمرارة وبصوتٍ عالٍ، فأشار الشيخ إلى والدي بأن يخرجني من الغرفة، ففعل...

تلك، كانت المرة الأولى التي أقابل فيها شيخ «المعبد المبارك» وكانت الأخيرة، والحقيقة لم يكن الشيخ طاعناً في السن، بل كان

شاباً في الثلاثين من عمره، وكان حديث العهد في زعامة المعبد، حيث توفي والده منذ ستة أشهر، حسب ما سمعت من أمي «أمينة» حين عودتي ووالدي إلى البيت ومعرفتها بما حصل معي داخل غرفة الشيخ، الذي رحتُ أصف لأمي عينيه الواسعتين وبخطوطهما الحمراء ولمعانهما الذي سكب الرعب في روحي وبدأ بدني يرتجف وشعرت بدنو أجلي لسبب لم أكن أعرفه...

ذلك اليوم العصيب الذي عشته، والذي مر عليه قرابة الأربعين عاماً، ما زلت أتذكّرهُ بكل تفاصيله ومرارته وخوفه...

***

قلادة أمي «أمينة» ذات الليرات الخمس المنقوش على كلٍّ منها اسم شيخ من الشيوخ المتوارث زعامتهم لـ «المعبد المبارك»، بزخارف نباتية لها دلالتها الروحانية وقدسيتها، كانت مهرها الذي قدمته عائلة والدي لها حين قبلت الزواج من شاب لا تعرفه ولم تشاهده من قبل، حيث كان جندياً مقاتلاً في بلدٍ مجاورٍ احتلته عصابات غجر، قدموا من وراء البحر، كان «يقاتل الغجر بسلاح غجري» عبارة سمعتها مراراً منه وهو يحدثنا متذكراً تلك الأيام والشهور المريرة... تلك القلادة التي أعشق، والتي طالما شممتها وأنا أدس أنفي وسط رقبة أمي، والتي لم أكن أعرف بأن «أمينة» تعشقها أيضاً كونها مهر اقترانها بوالدي الذي أحبته منذ الليلة الأولى التي التقت به تحت سقف غرفة مقفلة... كان جيدها الأبيض المحمر، وشعرها الفاحم المنسدل دوماً على كتفيها، يضفي جمالاً على جمال القلادة التي سحرتني وصرت عاشقاً

لها، لقناعتي منذ كنت صبياً، بأنها تُدخل السعادة إلى روح من ينظر إليها...

كنتُ في العاشرة من عمري، واضعاً رأسي في حجر أمي الجالسة على الأرض، وجسدي ممدد على حصيرة «مقدسة» مصنوعة من سعف النخيل، منقوشٌ في وسطها تماماً طائر أزرق بذيل أحمر وكأنه خارج من النار... وكانت إلى جانبها أختها الصغرى «خالتي سكينة» التي تفضل، شرب الشاي دون سكر، والخبز المطعّم بالسمسم، وغياب صوت زوجها من الدار لوقت طويل... حينها همستْ أمي إلى أختها بعد أن «تأكدتْ» من غفوتي، عن حلمٍ يراودها مراراً، وكنت أسمعها متظاهراً بالنوم حين أسرّت لها بأن الرجال أصحاب الأسماء المنقوشة على ليرات قلادتها قد زاروها تباعاً في منامها، وأنهم أجبروها على ممارسة الجنس، ففعلت نزولاً عند رغبتهم «النورانية» وقد شعرتْ بمتعة عظيمة لم تشعر بها من قبل، فقد كانوا فحولاً يشع النور من وجوههم. ولخمسة أيام متتالية تحممت أمي صباحاً، مباشرة بعد الاستيقاظ من نومها كونها على قناعة تامة بأن عدم الاستحمام يفسد صلاتها... لا أدري لماذا تلمستُ الفرح والنشوة في كلماتِ أمي الهامسة، وخفتُ عليها من غضبة والدي إنْ عرف بقصة مناماتها الخمسة المتتالية والعابقة بروائح أجساد خمسة من شيوخ «المعبد المبارك»...

***

حين كنت أخوض معركة الامتحانات الثانوية، وتجرعت مرارتها وخوفها وقلق الليالي التي تسبق يوم الامتحان، قررتُ مباشرة دراستي

الجامعية في البلاد البعيدة، وكنت أدرك حينها أن ذلك صعب المنال، لكنني أفصحتُ عنه لوالديَّ حالما أنهيت امتحاني الأخير... وضع والدي كفه اليمنى على فمه وأطرق ناظراً صوب الأرض كعادته حين يفكر في أمر عصيب، واغرورقت عينا والدتي بعد أن أعلنت عدم قدرتها على تحمل مرارة الفراق، لكنها وبعد يومين من ظهور نتيجة الامتحان التي كانت مفرحة، دستْ في يدي مبلغاً صغيراً، طالبةً مني التقديم وإكمال معاملة السفر... وكأنها أدخلتني الجنة تلك «الأمينة»... وضعتْ فيض حُبها بظهري ودفعتني بحنان ملائكي صوب فرحٍ غامرٍ ما زلتُ أتذوقهُ بسعادة...

وحين حلَّ موعد سفري، وضعتْ «أمينة» في كفي بعد أن انزوت بي فوق سطح الدار، مبلغاً من المال لم أكن أحلم به، ولم أكن أعتقد بأن بيتنا المتواضع يحتوي على مبلغٍ مثله، قالتْ:

«هذا كل ما أملك، خذه واحرص عليه لتصنع به مستقبلك، إن ضاع، ضاع معه المستقبل...». قالتْ ذلك وأنا أنظرُ إلى قلادتها وجيدها وشعرها الفاحم الذي عمدتُ على مداعبته بشفتي وأنا أحتضها... كانت تلك، المرة الأخيرة التي أرى فيها قلادة «أمينة».

يا إلهي كم كان المبلغ زهيداً!... ذلك ما شعرت به بعد أسبوع من وصولي بلد الثلج، ولولا السكن الجامعي لاتخذتني الأرصفة ضيفاً دائماً تجود على عظامه بالبرد والوحشة...

اشتغلتُ بالصحافة كوني كنت أدرسها، والحقيقة، كان العوز يقف وراء ذلك القرار، الذي بدأت أقطف ثماره منذ الأسبوع الأول...

ظلت قلادة «أمينة» أنيستي في غربتي، وكنت أستعين بمخيلتي وذكرياتي حين تنهشني وحشة الغربة، لأستحضر ذلك الجيد الدافئ المطوق بالذهب، وكثيراً ما احتضنتني الذكرى لأغفو داساً وجهي برقبة أمي متحسساً حلقات سلسلة قلادتها بين شفتي، لكن كل ذلك تغير، منذ أن أخبرتني أختي في مكالمة هاتفية مطولة، بأن أمي قد عمدت إلى رهن قلادتها عند مرابية تدعى «مُلكيّة» لتؤمّن لي ذلك المبلغ الذي منحتني إياه عند السفر... لم أصدق ما سمعت، وحين أخبرتُ أختي بأنني رأيت القلادة على صدر أمي يوم سفري، أخبرتني بأن ذلك كان متفقاً عليه بين أمي والمرابية حيث اتفقت على تسليمها القلادة بعد سفري مباشرة...

صارت قلادة «أمينة» كابوسي الليلي، تزورني كل ليلة لتحكي لي قصة المرأة التي عشقت ابنها ومنحته أعز ما تملك، منحته قلادتها، مهرها، حبها لزوجها، أو، كل «ثروتها»...

وكي أتخلص من ذلك الكابوس، دلتني نفسي إلى علاجها، إلى كتابة قصة قصيرة تحكي حكاية «قلادة أمينة» وبالفعل، خفّت وطأة الكابوس على روحي، حين كتبت القصة ونشرتها بإحدى الصحف الرئيسة في بلدي تحت عنوان «قلادة أمينة» وقد أسهبتُ مستعيناً بمخيلتي، في تفصيل تفاصيل المضاجعات الخمس، في ليالي «أمينة» الخمس التي حلمت باحتضان أجساد الشيوخ الخمسة، وقد أسميتهم كما جاءت أسماؤهم المنقوشة على ليرات القلادة...

لم يمر شهر على نشر القصة، حتى أصدر الشيخ العجوز «سادر المبارك» فتواه بإهدار دمي كوني مرتد...اً

ماتت «أمينة» وبعدها بثلاث سنوات ماتت المرابية «مُلكيّة»، وصارت قلادة أمي إرثاً توارثه أحد عشر ابناً من أبناء المرابية... وظلت مدينة النهر تدعى بـ «مدينة المعبد».

(5)

بغداد...

«مشهد مِنْ هُنا... ك»

لم يجد الشاب مكاناً له في المقهى، سوى ذلك الكرسي قبالة الرجل الأربعيني ذي الشعر الأجعد المنشغل بقراءة الجريدة... سحب الكرسي قليلاً دون أن تصدر منه كلمة. كان وجهه باسماً وهو يصوّب نظراته تجاه الرجل المنشغل بالكلمات... استقر على كرسيهِ ورفع صوتهُ في طلب الشاي من صبي المقهى... الفتى اليتيم الذي يعرفه كل من ارتاد المقهى غير مرة، لبراعته في ترك أثره الممازح وهو يلعب على أوتار هموم من يعرفهم من روّاد المقهى... «لا يمكنني أن أضع قدح الشاي على طاولة الزبون دون أن أرسم الابتسامة على وجهه...» هكذا كان صبي المقهى، الفتى ذو الستة عشر عاماً يرد على تساؤلات الفضول التي يمطرها عليه الزبائن بحثاً عن سر إعجابهم بروحه المشاكسة...

(المشهد داخل المقهى، لم يخرج عن المعتاد، الجميع، وعلى اختلاف أعمارهم مشغولون بأحاديث هامسة، وهناك من يجلس

صامتاً وكأنه يتأمل شيئاً ما في مكانٍ ما... باستثناء أربعة رجال يشكلون في جلستهم أربع زوايا لمربع افتراضي، تجمعهم لعبة الدومينو... الفتى صبي المقهى دائم الحركة لا تفارقه ابتسامته...).

اقترب الفتى من الشاب حاملاً «استكان» الشاي بطريقة القهوجي المحترف. وقف إلى جانبه وقبل أن يضع القدح على الطاولة، غمز مستخدماً حركة من رأسه ألحقها بأخرى من عينه اليمنى صوب الرجل صاحب الجريدة، وقال:

«يا أخي! الحياة جميلة رغم الاحتلال... قالها بسخرية واضحة وأضاف: «هل تعرف من هو المسبب الحقيقي في احتلال هذا البلد؟... إنهم الشعراء! أجل، الشعراء العاطلون عن الشعر... قال عبارته الأخيرة وراح هارباً وهو يقهقه بصوت مسموع، تلك العبارة التي سمعها من أحد رواد المقهى، فحفظها عن ظهر قلب بعد أن عرف أنها تستفز البعض.

ابتسم الشاب دون أن يعي ما كان يغمز له الفتى، ولكنه سرعان ما فهم المغزى بعدما سمع شتيمة الرجل الأربعيني:

«يا كلب... لعنة الله عليك وعلى من يكره الشعر... احذر أنْ تشاكسني مرة أخرى! جاهل... معتوه...».

فهم الشاب على الفور أن الرجل الجالس قبالته، شاعر، وفكَّرَ أنه يجلس أمام رجل مثقف، ربما يكون في جعبته الكثير، ففكر طامعاً بحديث معه عله يكون ممتعاً... استل سيجارة من جيب قميصه بعد أن رشف بحذر رشفته الأولى من «استكان» الشاي والابتسامة ما تزال

مرسومة على شفتيه. أشعل سيجارته ونظر صوب جليسه... في تلك الأثناء رمق الرجل جليسه الشاب بنظرة متفحصة كشف من خلالها عن حبات الدقيق المتعلقة بخصلات شعره وضفاف منخريه، إلا أن الشاب الذي تلاقت نظراته مع نظرات الرجل عاجل جليسه بسؤال:

«هل هناك أخبار جيدة عن البلاد هذا اليوم؟».

ابتسم صاحب الجريدة ابتسامة مصطنعة وعاد بنظره إلى جريدته بعد أن صنع منها حاجزاً بينه وبين الشاب.

شعر الشاب ببعض إهانة من تلك الابتسامة والحركة التي أبداها الرجل، ولكنه آثر عدم الاستسلام، وقال محتفظاً بابتسامته التي ظهرت متشنجة بعض الشيء: «ربما تكون هناك، وعلى غير العادة، أخبار سارة هذا اليوم!».

«هل تعرف القراءة؟»... وجه صاحب الجريدة سؤاله إلى الشاب الذي أجاب على الفور: «نعم، بكل تأكيد!».

«إذاً، عليك الانتظار حتى أفرغ منها، عندها سأعيرها لك بعض الوقت كي تعرف إن كان هناك ما يثلج صدرك..».

«ولكن، ألا تعتقد أن في هذا مضيعة للوقت؟».

«ماذا؟...» سأل صاحب الجريدة وعلامة الدهشة مرسومة على وجهه، فأجابه الشاب: «نعم يا صديقي، إن في هذا مضيعة للوقت، وكما تعلم، فإن الوقت ثمين جداً... لذا أجد من الحصافة والذكاء، أن توجز لي بأسلوب المثقف العارف بقيمة الكلمة ومعناها، خلاصة ما قرأت من أخبار، وهذا لن يأخذ منك سوى دقيقة أو اثنتين! وبهذا سنحترم، أنا وأنت، الوقت الذي نعتوهُ بالسيف.».

رمق الرجل جليسه بنظرة متفحصة لا تنقصها الدهشة وقال متسائلاً: «هل تعي ما تقول؟... هل تريد أن تفهمني بأنك تدرك ما للوقت من أهمية؟ هل يحظى الوقت باهتمامك أنتَ!؟».

«نعم، ولِمَ أراك مندهشاً؟...». ألقى الشاب بسؤاله وهو محتفظ بابتسامته، فأجابه الرجل بسؤال آخر:

«قل لي!... ما عملك؟».

«أنا خبّاز!...». قال الشاب ثم استدرك: «أقصد أنا عامل في مخبز، ولست صاحبه.».

صاح الرجل مستنكراً وكأنه فقد صوابه: «يا الله... ما هذه المهزلة؟ أجير خبّاز يحاول أن يفهّمني معنى الوقت واحترامه!!...» ثم ركّزَ نظراته بعيني الشاب وأضاف بشيء من التهكم: «هل تعرف حضرتك، مع من تتكلم؟».

قرأ الشاب علامات الاستفزاز على ملامح جليسه وشعر أنه ردَّ الإهانة التي وجهها له الرجل منذ قليل. ابتسم وقال: «نعم، أنا أتكلم مع رجل مثقف، شاعر، وهذا ما دعاني إلى سؤالك، علّكَ توجز لي أخباراً مهمة، سهلة الفهم.».

«إذا كنت تبحث عن السهولة في الفهم فعليك إيجاد غيري من البشر. السهولة والبساطة، أقصد السذاجة، ليست من بين أصدقائي...». أطرق الشاب رأسه وراح ينظر إلى سبابة يده اليمنى وهي تدور على حافة «إستكان» الشاي، ولكنه سرعان ما رفع رأسه قائلاً بصوت لا يخلو من الحزن والغضب الدفين:

«هل تعرف أيها الشاعر، بأن هذه البلاد بحاجة ماسة إلى شاعر؟ أعتقد أن الشخصية الوحيدة التي يمكن لها إنقاذ هذه البلاد من كوارثها وأمراضها هي شخصية الشاعر وروحه المخلصة...».

تهللت ملامح الرجل وانفرجت أساريره حين سمع من الشاب الذي تغطي حبات الدقيق كل ما ظهر من مظهره، ولولا بياض قميصه لصارت الحبيبات أضعاف ما تراه العين، وقبل أن يتفوه بكلماته أضاف الشاب قائلاً:

«نعم أيها الرجل الشاعر، إن هذه البلاد بحاجة إلى شاعر، ولكن ليس من يسطّر الكلمات كفرطِ مسبَحةٍ ثمينةٍ بيد متسولٍ أعمى. البلاد بحاجة إلى شاعرٍ بالمسؤولية... الشعور بالمسؤولية اتجاه البلد وبسطائها هو جلّ حاجة هذه البقعة التي تفوح منها نتانة الذاتية والمطامع ورائحة الدماء الساخنة...».

«الكلام جميل على الرغم من أني أشم رائحة تهكم بين ثناياه... ولكن ألا تعتقد بأن الشعراء هم أيضاً من يَحمِلون مسؤولية هذا البلد ضمن همومهم الكثيرة؟».

نظر الشاب بعيني الرجل، زافراً سخونة رئتيه بصوت مسموع وقال: «هذا ما يجب أن يحدث... هذه الحقيقة التي انتظرتْ طويلاً لترى النور، يعرفها القاصي والداني، ولا أقصد هنا الشاعر بالتحديد، ولكني أقصد المثقف، المثقف الذي يوقدُ نوره في وضح النهار كي يضع الحقيقة بمتناول البسطاء...».

صار الرجل يتفحّص بدهشة واضحة ملامح الشاب وهو يلتهم

كلماته بمتعة خاصة... استمر الشاب بحديثه رغم التقاطه دهشة الرجل:

«الفعل يا صديقي، وملامسة الواقع يختلف كثيراً عن الخيال أو الحلم... هذه أيضاً حقيقة يعرفها الشعراء قبل غيرهم، إلا أننا نراهم يقَدّمون الأحلام في صورٍ مرسومة بالكلمات، كوَجَباتٍ، يتصورون أنها ساخنة شهية، وفيها من الدسامة ما يكفي لشحذ إدراك المتلقي وجعله أكثر استيعاباً...».

قاطعه الرجل متسائلاً ومحتفظاً بدهشته: «أليس هذا عملاً عظيماً، خلاّقاً، إبداعياً؟».

«أكيد، هو كل هذا، ولكن كيف السبيل إلى وصول المعلومة الدقيقة والواضحة إلى متناول البسطاء؟ بسطاء هذا المكان الذين تشكل الأمية بينهم نسبة مهولة؟ وأنتَ تعرف كارثية تلك النسبة على مجتمع مثل الذي نعيشه...».

ثم أضاف مستدركاً: «وعليك ألا تنسى بأن هؤلاء البسطاء هم صنّاع الحياة، هم من يصنع الخبز والكتاب، وهم أيضاً مَنْ يصنع الأوراق والأقلام للشعراء والمثقفين... عتالون وأُجراء وكسبة، عمال مطابع ومنظفون ومستخدمو مدارس وجامعات ودوائر رسمية،... كيف السبيل إليهم أيها الشاعر؟».

دَعَكَ الشاعر شعره الأجعد بأطراف أصابعه وهو يحاول أن يرد على سؤال الخباز، فقال: «هذه مسؤولية الدولة... الدولة التي تنهق كل يوم وهي تعلن مسؤوليتها عن حقوق الإنسان وحفظ كرامته، هي المسؤولة عن إيصال العلم والثقافة للناس...».

«ولكن، إذا كانت الدولة «تنهق» كما تقول، أي إنها مجموعة حمير حسب رأيك، فكيف تُحمّل الحمار جريرة التخلف ثقافياً؟ ما علاقة الثقافة بالحمير؟».

«أنا لم أقصد هذا حرفياً، وإن كان فيه بعض الواقعية. ما قصدته أن السياسي صاحب القرار هو المسؤول عن أمية المجتمعات وتجويع الشعوب، ولم يكتفِ بهذا بل أمعن في إيذاء المثقف وإهانته وتهميشه...».

«وما الذي فعله المثقف؟ أو ما الذي على المثقف فعله في هذه الحالة، وهو ينضم بطبيعته إلى رهط الجياع؟ أضف إلى ذلك ما قُلتَهُ حول التهميش وإهانة صاحب القرار له؟».

«عليه أن يبقى حياً وينتج!!...».

نظر الشاب صوب الساعة الجدارية الكبيرة وتمتم بصوتٍ مسموع: « أعتقد أن وقت استراحتي شارف على الانتهاء « ثم التفت إلى الرجل متسائلاً: «هل تعرف سقراط؟».

ابتسم الرجل بشيء من الاستخفاف بالسؤال، وبعض الزهو بنفسه، وقال وكأن الدهشة قد امتلكته: «نعم... وهل تعرفه أنت؟».

«المهم أنك تعرفه، وهذا ما أريد معرفته كي أتأكد من وصول المعلومة بشكلها السهل الواضح...» صَمَتَ الشاب لثوان وهو ينظر صوب «استكان» الشاي الفارغ، ثم رفع رأسه ناظراً صوب الرجل وقال:

«لم ينشر سقراط أي كتاب في حياته، ورغم ذلك ترانا نتحدث

عنه اليوم وبعد قرون من موته... تُرى ما سرُّ عظمة هذا الرجل، أو العقل الذي كان يحمله؟ إنها ببساطة إدراكه حاجة البسطاء من الناس إلى تعلّم فن إثارة الأسئلة. الذكاء يا صديقي لا يكمن في الإجابة على الأسئلة، بل يكمن في صياغة السؤال وطرحه... وسرُّ عظمة سقراط هو مكانه الذي اتخذه بين البسطاء ومن يصنع الحياة، كان يتحدث إليهم ويسمعهم... فهل عرفتَ مثقفاً في عصرنا هذا، فعل فعلة سقراط؟».

شعر الرجل أنه يجالس شخصية ممتعة. شاب ليس بالبساطة التي يظهرها مظهره... شعوره هذا بدأ ينسحب بدبيبِ إحساسٍ صار يتسرب إلى خلاياه، يناديه على الاعتراف بشيء لا يعرفه بشكل واضح... تململ في جلسته واستقام قليلاً وقال:

«ما تقوله صحيح، ولكن عليك الاعتراف بأنك تتحدث عن زمن لا يشبه زمننا هذا... الزمن الذي عاشه سقراط زمن بسيط لم يعرف تعقيدات الحياة وصعوباتها التي نعيشها اليوم...».

قاطعه الشاب مبتسماً: «الزمنُ مختلفٌ، هذا صحيح، ولكن الإنسان لم يختلف، ولم تختلف همومه وتطلعاته، فلا يمكن أن تقاس أحلام الإنسان وآماله، بالحجم، أقصد إن كانت كبيرة أو صغيرة... والمهم هنا، علينا الاعتراف بأن ما يخيفنا اليوم كان حاضراً في الأمس وعلى مرّ العصور... رجال الشرطة، والعسس من الغرباء، والسجون والوشاة وكتّاب التقارير والذبّاحون كانوا في زمن سقراط أيضاً كما هم اليوم يندسون بيننا... ولا تنسَ بأن سقراط عرف السجن وبرودة الزنازين ووحشتها...».

(المشهد داخل المقهى، لم يخرج عن المعتاد، الجميع، وعلى اختلاف أعمارهم مشغولون بأحاديث هامسة، وهناك من يجلس صامتاً وكأنه يتأمل شيئاً ما في مكانٍ ما... باستثناء أربعة رجال يشكلون في جلستهم أربع زوايا لمربع افتراضي، تجمعهم لعبة الدومينو... الفتى صبي المقهى دائم الحركة لا تفارقه ابتسامته...)

همَّ الشاب واقفاً، وقال بشيء من الاحترام الواضح: «سعيد بمعرفتك، وسعيدٌ جداً بحديثي معك، وتأكد، مِنْ أنَّ شعوري بالسعادة صار مضاعفاً حين تأكدتُ من أني لم أهدر وقت استراحتي عبثاً... أتمنى أن ألقاك مرة أخرى... طاب نهارك.». في تلك الأثناء شعر الرجل بضرورة سؤال يدور في ذهنه، فأصرَّ على طرحه، قبل أن يرد للشاب تحية الوداع، فقال مبتسماً: «لم تقل لي أيها الشاب، أين تعلّمت كل هذا؟ أقصد تحصيلك العلمي؟...». التفت الخبّاز نحو الشاعر مبتسماً وقال:

«قبل دخول قوات الاحتلال بأيام، كنتُ في السنة النهائية من دراسة الفلسفة بجامعة بغداد، وبعد أن أصبح الاحتلال حقيقة ملموسة، وفي لحظة حاسمة، استرجعتُ فيها كل صور الحروب والحصار والإذلال، قررتُ ترك الدراسة والاهتمام بصنع الخبز للناس كي أكون قريباً منهم، أحاكيهم وأسمعهم، أشعر بهم وأتلمس جراحهم كي يتلمسوا جراحي... طاب يومك أيها الشاعر.».

ردّ الرجل التحية وتسمَّرَ نظره صوب الخبّاز الأجير حتى غاب من المشهد... ثم عاد ينظر في جريدته، وما هي إلا ثوانٍ حتى دوّى صوت انفجار قوي هزّ خشبة المسرح التي سرعان ما امتلأت

بالدخان وتلاشت معالم المقهى وسط صياح وصخب الممثلين.... حينذاك علا صراخ الجمهور غاضباً ومستهجناً هذه النهاية الدموية، ثم أُسدلَ الستار.

خرج الجمهور محتفلاً بالضوء الذي كان غائباً طيلة عرض المسرحية، ومن بينهم كان شاب في الثلاثين من عمره يسير إلى جنب شابة تصغره بضعة أعوام... دسَّ يده بين زند الفتاة وأضلاعها وقرّب شفتيه من أذنها اليمنى سائلاً: «ما الذي تفكرين به؟ هل هناك ما نال إعجابكِ في المسرحية؟...». أجابت الفتاة والابتسامة مرسومة على وجهها:

«أحاول الاقتناع بفكرة المسرحية، فبرغم النهاية الدموية، وجدتُ أن المؤلف قد حرصَ على غياب صبي المقهى والشاب الخبّاز من المشهد لحظة الانفجار... هل تعتقد بأنهما قد نجيا؟».

«هل نسيتِ بأنها مسرحية؟...». قال الشاب بعد أن أطلق ضحكة مسموعة وأضاف:

«ولكن ألم تحزنِ على من طالته شظايا الانفجار؟...». ابتسمت الفتاة وقرّبت شفتيها من وجهه، وكأنها تهمُ بتقبيله وقالت:

«إنها ببساطة يا زوجي العزيز... مجرد مسرحية!».

(6)

برشلونة...

«صانع الوهم»

اعتاد الرجل العجوز «خوان غاودي» العامل السابق في مطبعة بلدية برشلونة، السير صباحاً لمسافة الكيلومترين حتى يصل ساحة كتالونيا التي تمثل قلب المدينة، ليتخذ من إحدى مصاطب الساحة مجلساً له... يستل أولاً قنينة الماء من حقيبته الجلدية ليحتسي منها القليل ثم ينشغل بممارسة لعبته المفضلة، محاولة تحليل بعض الشخصيات من خلال حركاتهم وإيحاءاتهم الجسدية وطبيعة مظهرهم الخارجي، وغالباً ما يكون مبتسماً، ليستل بعد ذلك من حقيبته كتاباً يشرع في قراءته رغم ضعف بصره الذي طالما أجبره على التغيير المستمر لنظارته الطبية... كان يراقب الناس باهتمام وفضول، يتأمل الناس، وكان كثيراً ما يبتسم حين يكون طفل صغير داخل المشهد، فهو كثير الشغف بالأطفال.

«خوان غاودي» الذي ولد في البيت الملاصق لبيت أحد أهم المهندسين المعماريين الذين عرفتهم مدينة برشلونة بل إسبانيا

برمتها، قد مُنح اسم ذلك المهندس كونه ولد في اليوم الذي مات فيه «أنطوني غاودي» المعماري الذي صمم وبنى كنيسة «ساغرادا فاميليا ـ العائلة المقدسة» والتي تعد أهم المعالم في المدينة.

حين عرف الرجل سرّ اسمه وهو في سن مبكرة صار شغوفاً بالقراءة، حتى أنه أدمن رائحة الورق والأحبار، ليصبح تحت سطوة حظه العاثر في الدراسة، أحد أهم عمال المطابع في مدينة برشلونة، فتم تعيينه مديراً لمطبعة بلدية المدينة خلال السنوات العشر الأخيرة من خدمته قبل إحالته على التقاعد لبلوغه السن القانونية لذلك... ومنذ ذلك الحين صارت ساحة كتالونيا مزاره اليومي ومتعته وهوايته التي أدمن عليها منذ قرابة الخمسة عشرة عاماً.

في أحد النهارات، جذب انتباه الرجل العجوز حركة الأطفال وهم يتقافزون ويركضون، وما أن حوَّل نظره صوب وجهتهم حتى شاهد شاباً ينحدر من سلالة الهنود الحمر، شاباً وسيماً ينتمي إلى إحدى بلدان أمريكا اللاتينية، كان يمسك عصاً في كل يد، ونهايتهما مغروزتان في حوض بلاستيكي أمامه، وبمجرد أن يرفع الشاب العصوين عن الحوض، يظهر حبل تتدلى منه خمسة أنصاف دائرة بمساحات مختلفة، مربوطة إلى الحبل الرئيس الذي يربط طرفي العصوين، وما أن يرفع الشاب العصوين ويفرد ذراعيه حتى تتطاير العديد من الفقاعات الصابونية محلقة في الفضاء القريب من رأسه ورؤوس الأطفال لتزداد على إثر ذلك حركة الأطفال نشاطاً، فيتقافزون بغية الإمساك بالفقاعات... استمرت المحاولات مع كل رفعة لساعدي الشاب، وفي كل مرة يعود الأطفال خاليي الوفاض،

لكنهم مصممون على الاستمرار بالمحاولة التي لا تخلو من المتعة والدهشة.

منظر مدهش، الفرحة لا تنقص الأطفال وكذلك الشاب، كان فرحاً أيضاً...

يبدو أن المشهد قد أثار فضول الرجل العجوز، فهمَّ واقفاً مستعيناً بعصاه واتجه صوب الشاب. وقف إلى جانبه وسأله بشكل مباشر دون أن ينظر إليه، حيث كان نظره متجهاً صوب الأطفال: «ما الذي تصنعه يا رجل؟» انتبه الشاب مبتسماً، ودون أن ينظر إلى الرجل العجوز، فقد كان هو أيضاً مسحوراً ومستمتعاً بحركة الأطفال وفرحهم... أطلق ضحكة مسموعة وقال ممازحاً:

«أصنع الوهم...» اتسعت حدقتا الرجل الذي وجد إجابة الشاب صادمة، وقال مستفسراً: «الوهم؟... أليست صناعة الوهم جريمة؟» أطلق الشاب ضحكة مسموعة أخرى وراح يسأل محتفظاً بقهقهته: «جريمة؟... أكيد لا...» قالها وكأنه يعلن استغرابه من التهمة التي كاد الرجل العجوز يحاول إلصاقها به، لكنه التفتَ صوب العجوز وهو مستمر بحركته التي تصنع الفقاعات وأضاف محتفظاً بضحكته: «لو كانت صناعة الوهم، أو حتى الإيمان به، جريمة، لوجدتَ كل البشر على هذه الأرض في السجون... كلهم، صانعو الوهم، والمؤمنون به، حتى هؤلاء الأطفال... تصور!!» شعر الرجل العجوز بأن الشاب «صانع الفقاعات» لا يعبث، فأجوبته تكتنز بعداً معرفياً، وفكرة تدرّبَ عليها كثيراً نتيجة عمله ذاك، فشعر أن هناك مغزى أو فكرة جراء عمل الشاب الذي بدا له مفعماً بالحيوية، قوي البنية، فسأله إن

كان يتقاضى أجراً جراء عمله هذا الذي يسعد الأطفال، فنفى الشاب ذلك، مما حدا بالسيد «خوان غاودي» ودفعه إلى طرح سؤال آخر بشكل مباشر لا يخلو من الدهشة الواضحة:

«قل لي أيها الشاب، وكن صادقاً معي، ما الهدف من عملك هذا؟» توقف الشاب عن رفع وخفض ذراعيه، ونظر إلى الرجل العجوز مبتسماً بعد أن أعلن بصوتٍ عالٍ إلى الأطفال بأن وقت الاستراحة قد حان، وقال:

«يا سيد! منذ خمسة أعوام وأنا أمارس هذا العمل في أوقات الفراغ، أتجول بعُدتي البسيطة هذه في شوارع برشلونة الأكثر زحاماً، ودائماً ما يكون الأطفال غايتي، أصنع لهم الفقاعات ليتقافزوا ويمرحوا ناشدين الإمساك بالفقاعة، لكن هذه ليست غايتي...»

«فما الغاية إذاً؟» قاطعه الرجل العجوز متسائلاً، فأضاف الشاب:

«غايتي، هو الطفل الذي يحاول أن يتفحص مصدر الفقاعات، الطريقة التي تصنع بها الفقاعات، أن يحاول مشاكستي ويتلمس الخيوط، ليكتشفها...»

«تقصد، أن يعرف حقيقة مصدر الوهم...» أطلق الشاب ضحكة منتصرة وقال: «بالضبط، هذا ما أبحث عنه، الطفل أو الإنسان المختلف، الذي لا يسحره الوهم قبل أن يدرس مصدره ويتعرف عليه جيداً» ابتهج السيد «غاودي» وأطلق ضحكة تناسب نَفَسَهُ الخافت، ثم استدار عائداً حيث مكانه السابق وهو يتمتم: «كلنا واهمون... حتى من يعرف مصدر الوهم تراه واهماً مسحوراً بالمصدر نفسه...»

بمجرد أن جلسَ السيد غاودي على المصطبة حيث مكانه السابق، حتى التفتَ صوب الشاب «صانع الوهم» ليشاهده وقد جمع الصبية ليتخذوا من الأرض مجلساً لهم، أمام وعاء الصابون الكبير.. حين ذاك راح يشرح للأطفال السرّ الكامن وراء صناعة الفقاعات، وعلاقة النسمات أو الريح الخفية في إطلاق الفقاعات من بين الخيوط المرتبطة بالحبل...

ابتسم السيد غاودي، وهو يستمع لكلمات الشاب التي تحاول إفهام الأطفال بأن الفقاعات مجرد وهم يبعث للمتعة، وأن الحقيقة تكمن في الخيوط والصابون والريح الذين يصنعون الفقاعات العصية على الإمساك، كونها وهماً يشبه الحقيقة...

(7)

دمشق، عدرا...

«988 والعم شوكت»

بالأمر الوزاري المرقم 988 الصادر من وزارة الداخلية، تم تعيين «نائب عريف شرطة» شوكت فائز شاغوري، شرطياً في سجن عدرا المركزي، حيث باشر وظيفته الجديدة في اليوم الذي أعلن فيه بعض السجناء إضراباً عن الطعام...

تم تعيين شوكت تحت إمرة الضابط المسؤول عن الجناحين الثاني والثالث الخاص بالسجناء السياسيين، ولكنه بعد سنتين من عمله هناك طلب نقله إلى جناح آخر، فقد كان يتألم كثيراً لوضع السجناء كونه صار متأكداً من أن أغلب سجناء الجناح شباب لم يقترفوا ذنباً سوى أنهم حالمون... وصار يردد بينه وبين نفسه:

«لا تحلم يا شوكت، وكن عاقلاً... فالأحلام تؤدي بك إلى السجن».

تم نقل شوكت إلى جناح رقم 12، وهناك وعن طريق الصدفة، تعرف على شاب في السادسة والعشرين من عمره، حمل الرقم 988،

وكان ذلك واضحاً على قميص بدلة السجن، فتذكر شوكت رقم أمره الوزاري الذي أتى به شرطياً منتسباً للسجن، وذلك ما زرع الرغبة في نفس شوكت للتقرب من السجين الذي عرف بأنه مسالمٌ، مطيعٌ للأوامر، وخائفٌ على الدوام، وأن اسمه «رامز»، ورغم ذلك بقي يناديه برقمه...

عرف شوكت، أن «رامز» وقبل أن يتحول إلى رقم قابع داخل أحد أجنحة سجن عدرا المركزي، كان شاباً حالماً، دخل لبنان وبقي هناك ثلاث سنوات عاملاً في مطعم، يخرج فجراً من غرفته التي استأجرها عند أرملة عجوز، قُتلَ زوجها في بداية الحرب الأهلية، متوجهاً صوب المطعم، ليجد سيارة الـ «البيك آب» الخاصة بالمطعم مركونة هناك. يخرج المفاتيح من جيبه ويفرد عنها مفتاح السيارة ليشغلّها، ويقودها صوب ساحة بيع الخضار. يشتري حسب القائمة الموجودة بين يديه التي كتبها له صاحب المطعم ليلة أمس، ليعود راكناً السيارة في محلها السابق، ويدخل المطعم المغلق بوجه الزبائن، لتستقبله رائحة ساخنة خانقة، منبعثة من الثلاجات الدائمة الأنين... لم يكن ذلك جلّ العمل المكلف به «رامز» بل عليه البقاء في المطعم حتى العاشرة صباحاً، يقوم بعزل الخضار وتنظيفها وتجهيزها حتى مجيء بقية العمال الذين اعتادوا أن يجدوه داخل المطعم وهو يتناول فطوره الذي يعدّهُ بنفسه... بعد أن يفتح المطعم أبوابه بوجه الزبائن، ينشغل «رامز» بغسل الصحون حتى ساعة متأخرة من الليل حيث يغلق المطعم أبوابه. حين ذاك يتسلم قائمة المشتريات من صاحب المطعم مع مفاتيح السيارة والمطعم، ليذهب مشياً على الأقدام حيث بيت الأرملة العجوز ليدخل غرفته وينام كالقتيل.

في إحدى الليالي وقبل أن يقفل المطعم أبوابه بساعة واحدة، دخل رجل طويل القامة بكرش صغير، يرتدي بدلة سوداء فاخرة وربطة عنق رمادية بخطوط بيضاء، وحذاءً جلدياً سرعان ما يجلب لمعانه الأنظار... كان شعره الكثيف فاحماً وكأنه قد صُبغَ منذ قليل... ما أن جلس إلى الطاولة حتى تقدم منه النادل مبتسماً وكأنه يعرفه من قبل، انحنى صوبه قليلاً ليصل بشفتيه أذن الرجل اليمنى، تمتم قليلاً، ثم رفع قامته على إثر ضحكة أطلقها الرجل... دخل النادل المطبخ وكأنه راح ليجلب ما طلبه الزبون من طعام، لكنه اتجه صوب «رامز» وأسَرّ في أذنه بعض كلمات، ابتسم «رامز» على إثرها وخرج من مطبخه ليدخل صالة المطعم ويتوجه صوب الرجل الجالس إلى الطاولة، ألقى عليه التحية وجلس إلى جانبه، فقال له الرجل بالبدلة السوداء: «أعرف أنكَ تريد السفر إلى دمشق في إجازة قصيرة تزور بها أهلك، وأعرف أنكَ سائق ماهر لذا، هناك خدمة ستؤديها لي مقابل مكافأة مادية مجزية...» وحين استفسر «رامز» عن نوع الخدمة، أخبره الرجل بأنها بضاعة، محملة على سيارة «بيك آب» عبارة عن بالات ملابس مستخدمة، وأن أوراق الخروج والكمارك جاهزة وسليمة، فما عليه إلا أن يوصل البضاعة إلى منطقة «برزة البلد» ويسلّمها إلى شخص سيعطيه رقم هاتفه ليتصل به، وهناك يفرّغ الحمولة ليأخذ السيارة يقضي بها مشاويره طيلة فترة الإجازة، ليعود بها إلى بيروت مرة أخرى...

«ولماذا لا أُفرغ الحمولة في منطقة «الشريبيشات» أو «سوق البرغل» وهي أماكن معروفة في دمشق لبيع ملابس البالة؟». أطلق الرجل ضحكة مسموعة وقال بسلاسة واضحة: «لأن البضاعة يحب

أن تكون في المخازن أولاً بغرض تصنيفها... وأنا أمتلك مخازن في المنطقة التي يجب عليك توصيل البضاعة عندها!!».

وافق «رامز» على الفور، بعد أن شاهد المبلغ الذي قدَّمهُ الرجل إليه، والذي استلمه، وتفحصه جيداً... كان مبلغاً مغرياً...

حين حلّ موعد مغادرة «رامز» إلى دمشق، جلس خلف مقود سيارة «البيك آب» المحملة ببالات الملابس المستخدمة، وأدار محركها وانطلق صوب الحدود...

وصل رامز إلى نقطة «العبّودية» الحدودية، وعبر بسيارته نقطة التفتيش اللبنانية بسهولة، ثم حدث الشيء نفسه مع نقطة الحدود السورية، إلا أنه ما أن تحرك بسيارته بضعة أمتار، بعد أن أخذ جميع الأوراق بعد ختمها، بما فيها جواز سفره، حتى تفاجأ بمجموعة من شرطة الحدود تطلب منه التوقف... وقف بسيارته، وترجل منها على إثر طلب ضابط الشرطة، ليتم تفتيش السيارة مرة أخرى...

***

حُكِمَ على «رامز محمود الشيبكي» بالسجن عشرين سنة، كونه، كان يروم تهريب، أكثر من خمسين كيلوغراماً من مادة «الحشيش» كانت مدسوسة بين طيات الملابس المستخدمة، فأودعَ سجن عدرا المركزي...

منذ الليلة الأولى التي تم إلقاء القبض عليه، صار جسد «رامز» يرتعش، وصار الخوف ملازماً شرساً لروحه، خصوصاً وقد تعمق الشعور بالخوف أثناء التحقيق الشرس، حيث تعرض إلى الضرب والإهانة والتعذيب الذي استمر طويلاً، وصار على إثر ذلك مطأطئ

الرأس لا يجد الجرأة في النظر إلى وجوه الناس ويرتعب إن التقت نظراته بنظرات الآخرين، صار يلوذ بالأرض ناظراً صوبها خوفاً من الناس، وقد اعتاد النظر إلى كفّ الذي يحادثة بدلاً من عينيه ليقيس حجم «الكف» الذي سيَلطِم وَجهه، فقد صار يتوقع اللطمة في أية لحظة ومن كل الاتجاهات، حتى صار داخل السجن «صبياً» لكل السجناء، وذلك ما لفت انتباه نائب العريف شوكت الذي أصرَّ على الاقتراب منه، حيث شعر أن الشاب مختلفٌ عن بقية السجناء...

«سُجِنتُ بتمة تهريب الحشيش، رغم أني لمْ أرَ الحشيش أو أتعرَّف عليه حتى اللحظة». تلك العبارة الصادمة التي سمعها نائب العريف شوكت، في أول لقاء بالسجين رقم «988» والذي عرفَ فيما بعد جلّ تفاصيل حياته البائسة، لتستمر علاقتهما طويلاً...

كان أكثر ما يزعج «العم شوكت» الذي صار «رئيس عرفاء» بعد عشر سنوات من تعرّفه على السجين رقم «988»، هو الخوف المزمن المسيطر عليه، والذي طالما تحدث عنه وعن ضرورة تخلص «رامز» منه، كونه سبب امتهان السجناء له، لكن الشاب الخائف الذي أصبح رجلاً خائفاً مشتعل الشعر ببياض يشوبه اللون الرمادي قليلاً، لم يتمكّن من ذلك، رغم أن «العم شوكت» قد بذل كل ما بوسعه من أجل ذلك، حتى أنه هدد السجناء بأشد العقوبات إن أساؤوا إلى «صديقه» السجين.

بعد عامين من الاضطرابات التي حلّت بالبلد وصار صوت الرصاص، البديل الأوحد للغناء والموسيقى التي كانت تنثر الفرح في ليالي دمشق بسمائها المرصعة بالنجوم والأمنيات البسيطة، حدث أن فُتِحَت كل أبواب أجنحة السجن باستثناء الجناحين الثاني والثالث،

وطُلبَ من السجناء مغادرة السجن بسرعة جنونية، حينذاك، وبعد أن جمع العم شوكت أغراضه على عجل توجه إلى الجناح الثاني عشر ليتفقد صديقه السجين رقم «988» فوجده وحيداً مقرفصاً عند الزاوية القصية حيث «المرحاض»... توجهَ نحوهُ وشده من يدهِ وطلبَ منه جمع أغراضه، ليخرج به بعد ذلك خارج أسوار السجن...

لا يعرف شوكت وجهته، ورامز لا يعرف شيئاً مما يحدث رغم ضوء النهار، وكل ما تمثّلَ في ذهنيهما خلال ذلك النهار، تجنب الموت، حيث كان صوت الرصاص وأصوات انفجارات متلاحقة بعيدة، تغلّف الأجواء وتتسيد الموقف... التصق «رامز» بالعم شوكت الذي قرر المسير دون توقف بعد أن استبدل الملابس العسكرية بملابسه المدنية...

ثلاثة أيامٍ بلياليها كانت الأقسى على العم شوكت وهو يسحب صديقه «988» الملتصق به والذي لم ينقطع عن ترديد عبارته المقلقة: «أنا خائف، لا تتركني أرجوك... أنا خائف...». حتى وصلا أسواراً شائكة في منطقة نائية، وحين اقتربا من السور شاهدا جنوداً يعتمرون «بيريات» زرقاء على رؤوسهم الحليقة....

***

بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ، كتبت صحيفة سويدية محلّية خبراً على صفحتها الأولى:

«صديقان سوريان يلعبان لعبة السجين والسجان، منذ ثلاث سنوات، داخل مسكنهما المشترك، في شارع «بربارا غاتن» وسط ستوكهولم.

(8)

مراكش...

عند سوق «دوّار العسكر»

أن تكتب رواية عن رجلٍ رشيق القوام، دائم الابتسام، شاحب الوجه، أسمره، يعمل بائعاً للبهارات في سوق شعبي لم يدخله أغنياء مدينة مراكش من قبل، قد يكون عملاً ممتعاً تعيش عوالمه الساحرة لعامٍ أو أكثر.

أن تستقبلكَ روائح حادة لمزيج هائل لا تعرف سرّه، تأخذكَ صوب مدن وبلدان بعيدة لم تزرها من قبل، حين تشرع بالدخول إلى بيت الرجل بائع البهارات، لتعيش معه أياماً معدودات طمعاً بمعرفة المزيد عن تفاصيل حياته... تأكل مما يأكل، وتتذوق شرابه الساخن الممزوج بـ «الشيبة والنعناع»، وتقضي معه وقت فراغه على طريقته هو، وأن تلتحف بغطاء يستعيره الرجل من جارته العجوز التي فقدتْ زوجها منذ قرابة النصف قرن... ورغم ذلك تتلمس عظامك برد ليل منطقة «دوار العسكر» الضاجة بالكلاب السائبة ليلاً، وأنت تستمع لحكايات الرجل عن آلامه التي غادرها

زمنها ولكنها بقيت عالقة بين تلافيف روحه... قد تمنحك شحنة إنسانية ربما تهبكَ الفرصة لتذرف دمعة ظلت عصية عن الهمول سنوات ليست بالقليلة.

أن تعرف أنَّ الرجل لا يعرف أباه، ولم يلتقِ بامرأة تدّعي أنها أمه من قبل، وأنه منذ كان صغيراً عاشَ وعملَ مع رجلٍ كان بائعاً للبهارات في سوق «دوار العسكر» الشعبي بمراكش، وقد ارتضى بمنزلة المريد بعد أن اتخذ من الرجل شيخاً له، لكن الشيخ فارق الحياة محمولاً داخل صندوقٍ رخيصٍ بعد أن زوَّجَ مريدهُ الفتي، من ابنته الوحيدة العمياء التي كانت «السبب» في موت أمها أثناء الولادة... يرث الشاب الفتي وزوج الفتاة العمياء مهنة الشيخ وكل ما خلفه له من أدوات ومواد في ذلك المكان الملفّق الذي يعرفه أغلب البسطاء الساكنين قرب السوق العشوائي التكوين، ليكون بذلك الوحيد الذي يمتهن بيع البهارات في المنطقة... قد يجعلك تسأل وبإلحاح عن الزوجة العمياء التي لم تلحظ لها أي أثر داخل الخربة التي يعيش تحت سقفها الخشبي الرجل بائع البهارات.

وحين تعرف أن الزوجة العمياء قد اختفت في يومٍ قائظٍ، حيث لم يجدها زوجها بائع البهارات داخل الخربة أو ما يسميه البيت، وأنه بحث عنها طويلاً ولم يستدل على أي أثر لها، وأنه ترك البحث عنها بعد أن كلت قدراته وقرر عاجزاً بالاكتفاء بانتظارها علها تعود يوماً ما... قد تمنح مخيلتك فضاءً أوسع لتنسج قصة تليق بقدرتك الروائية ومهارتك السردية التي طالما اعتقدتَ بأنها أكثر مما يميز كتاباتك...

ولكن، حين تعرف أن هناك من غرّرَ بالزوجة العمياء، وأوهمها

تحت غطاء الحب بأنه عازم على انتشالها من الفقر حيث قرر «أن يحملها على ظهر جواده الأبيض» ليُسكنها في قصر لا ينقصه الخدم، ثم يصطحبها بعد أن تفلح حيلهُ باستمالتها، بعيداً حيث أقصى الشمال ليدخلها عالم الشحاذة ويجني من ورائها الأموال وهي تجوب الشوارع والمقاهي والمطاعم من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، تستجدي البشر قطعة نقود...

ثم تعرف أن المحتال قد أعاد المرأة العمياء خفية بعد أكثر من سنتين، إلى مدينتها حيث سوق «دوار العسكر»، ليتركها هناك بعد أن يأمرها بالاستمرار في الاستجداء حتى يعود إليها بالطعام... كعادتها تمتثل المرأة لأوامر الرجل الذي قرر التخلص منها إلى الأبد، ليعود شمالاً صوب أمواله التي جمعتها له العينان المطفأتان ودموعهما المصحوبة بالتوسلات... تدخل المرأة حاملة جوعها إلى السوق دون أن تعرف أين هي... تستجدي المارة بصوتٍ متعبٍ، وما هي إلا خطوات قليلة حتى صارت قبالة زوجها بائع البهارات الذي شهق مفزوعاً وهو ينظر صوب حفرتي عينيها ليهرع صوبها بعد نوبة ذهول هزّت كيانه الهزيل... احتضنها محاولاً إخفاء ملامحها عمن في السوق درءاً للفضيحة، ليعيدها إلى خرابته سريعاً ويستفسر منها بصوت لا ينقصه الفزع والذهول عن سبب غيبتها... هناك حيث الخوف وارتعاشة الجسد، كانت المرأة تعيش دوامة عدم التصديق، وكانت تحاول بشرود واضح لملمة ذهنها المشتت لتعي حقيقة الموقف، ولكن ما أن تشعر بجدية الوضع الكارثي الذي صارت عليه حتى تشرع بسرد حيثيات قصة غيابها

بكل صدق، دون أن تفارقها دموعها... حينها تتلمس مخيلتك جمالية الحدث الدرامي الهائل الذي سيمنح مشاهد روايتك إيقاعاً هائلاً من الدراما الروائية المؤثرة.

لكنك حين تعرف أن المرأة العمياء قد ماتت منتحرة بعد أن سكبتْ قنينة نفط على جسدها واقتربت من الموقد الوحيد المنتصب في إحدى زوايا الغرفة الوحيدة للدار، لتلتهم النيران جسدها المتعب الذي كانت معجبة بتفاصيله وهي تراه بأصابعها...

حينها ستهرب خوفاً من أن تلتهمك نيران النص الكارثي الغارق بالمأساة تاركاً مشروع روايتك إلى الجحيم، كونها ستكون مملة غارقة بالمأساة لا أمل فيها غير البؤس والحرمان وغرائبية حياة لم تفهم منها غير اللوعة والألم، رواية ينقصها فسحة استرخاء يكون القارئ بأمس الحاجة إليها...

ذلك ما كان يدور بذهن الشاب الذي طالما حلم ومنذ أعوام، بكتابة روايته الأولى، حيث راحت مخيلته تنسج أحداث رواية وهو ينظر بإمعان صوب بائع البهارات المبتسم على الدوام، والمنتصب بقامته الممشوقة وسط سوق «دوار العسكر» بمراكش.

(9)

الصعيد ـ نجع الزيادي...

عصافير «الهايلة»

«الهايلة» فرس العمدة حمدان التي ذاع صيتها في نجع الزيادي والقرى المجاورة، ويقال إن صيتها قد وصل مسامع الملوك والأمراء، حتى صارت الفرس الأغلى في النجع كله... كانت حلم «غبّاش» الأوحد، الفلاح الشاب الذي ينتمي إلى سلالة تعيسة تمتهن الفلاحة بالأجرة...

ولد غباش من أبوين معدمين أجيرين لدى العمدة حمدان، وبالضرورة، ذلك ما وصل إليه غبّاش، حين صار هو الآخر أجيراً بالوراثة، في أرض الشيخ حمدان، أو من ضمن أملاكه.

تعلّق «غبّاش» بفرس العمدة مذ كان في الرابعة من عمره، حين وضعت «المستورة» الفرس البيضاء الأصيلة، وليدتها «الهايلة». كان غباش حاضراً وقت الولادة رغم أن الوقت فجراً، وكان من المفترض أن يكون نائماً في فراشه، لكن غرفته الطينية الملاصقة للإسطبل، كانت كفيلة بإيصال حمحمات الفرس ولغط الأشخاص هناك، في

وقت مبكر كان السكون وصمت الطبيعة أهم ما يميزه، رغم بعض الأصوات التي اعتادت عليها مسامع الطفل ذي الأربعة أعوام، حيث صار يميّز أصوات الجنادب والضفادع وعواء الكلاب البعيد... لذا فقد كانت حمحمات «المستورة» وأصوات من كان ينتظر ولادة الفرس بمن فيهم والدته وأبيه، كافية لإيقاظه، ورغم محاولة والداه في أبعاده وعودته إلى فراشه، لكنه أبى إلّا أن يحضر طقوس تلك الولادة التي ظل مسحوراً بها لزمن ليس بالقصير... قرفص «غباش» في زاوية تتيح له النظر صوب «المستورة» وهي مستلقية على جنبها تضرب الهواء بإحدى قوائمها وتطلق بين الحين والآخر، صوتاً غريباً لم يسمعه غبّاش من قبل... كان مأسوراً بدهشة المشهد الذي لم يرهُ من قبل، وكان بين لحظة وأخرى يتصور أنه ما زال نائماً، وأنه يعيش داخل حلم، حتى اتسعت عيناه وتسارعت ضربات قلبه حين ازدادت حركة الأشخاص وحمحمات «المستورة» التي امتزجت بـ «زغرودة» والدته وهي تُعلن ولادة أنثى شبيهة بأُمِها تماماً...

منذ تلك اللحظة، ظل غباش يطارد «الهايلة» بتفكيره، حتى حين كانت أصابعه تطارد البراغيث في زوايا جسده، أو حين يراقب افتراث بعوضة على جلده بعد صفعها، حيث صار كل شيء في عالمه مرتبطاً بالهايلة، حتى العصافير الهابطات من النخلات الثلاث المجاورات للزريبة، فحين شاهد تلك المخلوقات الصغيرة وهي تنقر أرض الزريبة باحثة عن الديدان وبقايا قشور الحبوب والعلف، قال بأن الهايلة «تطبخ» الطعام للعصافير، تأخذ الحبوب بفمها وتمضغها جيداً ثم تقذفها للعصافير كي تتغذى عليها، وكان مؤمناً بأن هناك لغة

مشتركة بين الهايلة والعصافير... كما ظل يقول: إن «الهايلة» حين خرجت من بطن أمها كانت تنظر إليه، ولم تحِد بنظرها عنه حتى حين صارت أمها تلحس لها رأسها... ويقسم أنه شاهدها تبتسم له... وكانت «الهايلة» كثيراً ما تزور غباشاً في أحلامه، وكان في كل مرة يقص حلمه على والدته، التي غالباً ما تفسر أحلامه بمستقبل عظيم لولدها الوحيد وأنه سيصبح «راجل» تهابه الرجال... في إحدى المرات، قص «غباش» الذي صار في العاشرة من عمره، حلم الليلة الماضية على والدته، وقال بأنه شاهد «الهايلة» تبتسم له وهي تقف وسط جمهرة من العصافير الملونة، حينها اقترب منها وألبس طاقيّته المثقوبة، رأس «الهايلة»، فشكرته وأحنت ظهرها ليتسنى له ركوبها، وما أن استقر على ظهرها حتى راحت ترقص رقصة «المولد»، وأن العمدة وقف ينظر إليه مبتسماً وبيده المنشة التي صُنعتْ له من شعر ذيل «المستورة» قبل بيعها إلى تاجر الخيول المسنّة، وأن أولاد العمدة وقفوا إلى جانب والدهم يصفقون على أنغام المزمار الذي كان بين أصابع وشفتي والده... أطلقت أم «غباش» ضحكة عالية بان على إثرها الفراغات التي خلفتها أسنانها الهاربة بفعل الفقر، وقالت بشيء من الدهشة، إن زوجها لم يعرف العزف على المزمار من قبل، فمن أين أتى ابنها بتلك الصورة، لكنها أوضحت بعد عبارة «خير... اللهم اجعله خيراً» بأن الحلم يشير إلى مستقبل عظيم ينتظر ابنها مثل مستقبل يوسف النبي... ابتسم غبّاش مزهواً، ومدّ كفه اليمنى إلى رأسه ليميل طاقيته المثقوبة جهة اليسار بفخر واضح، وقال محتفظًا بزهوه:

«أنا أحب العصافير أيضاً يا أمي، فهي تحرس «الهايلة» من الأفاعي والعقارب وتهاجمها إن اقتربت منها...» ثم نظر إلى عيني أمه ليتلمس تأثير كلماته عليها، وأضاف مبتسماً: «لكنني أحب الهايلة أكثر...».

مع «الهايلة» كبر غبّاش، وكبرت أحلامه معهما. صار يشعر بارتعاشة جسده وخفقان قلبه كلما لامست كفه رقبة المهرة الأصيلة وداعب شعرها، بعد أن يحصل على موافقة السائس أو العمدة أحياناً، وبخلاف ذلك كان يقف أمامها مبتسماً مسحوراً بجمالها، ثم يرتحل بعيداً بمخيلته ليجد نفسه طائراً مع «الهايلة»، ممسكاً الرسن بكلا قبضتيه، يغني لها أثناء الطيران، إحدى أغنيات جدته، التي تحكي قصة ذلك الفلاح الشاب الذي تزوج ابنة الملك بعد أن هرب معها ليسكن الغيوم... وأحياناً أخرى يجد الهايلة واقفة أمام سريره المصنوع من «جريّد» النخيل لتحكي له قصص الخيول التي تهاجر إلى بلاد الماء والمانجا، حتى يغفو ليبحر بأحلامه مع «الهايلة» مرة أخرى. وكثيراً ما كان يراها في أحلامه محفوفة بهالة من العصافير تطير بفرح راقص حولها، تغني لها أغنية الشكر كونها «صانعة الطعام».

حين صار غبّاش شاباً قوياً في العشرين من عمره، ارتكنت «الهايلة» إلى زريبتها، وقلّت حركتها، بعد أن أنجبت أربعة بطون: ثلاث إناث وحصاناً واحداً كان بكرها، حين اختار لها العمدة أجود الأحصنة لتلقيحها... إلا أن «غباشاً» لم يرَ في «الهايلة» إلا تلك الفرس الجموح القوية الفتية التي ابتسمت له حين ولادتها، وكأنها خرجت إلى الدنيا من أجلهِ فقط، وأنه الوحيد الذي يحق لهُ عشقها،

والجدير برعايتها... فمنذ أن اهتم العمدة بالفرس الثالثة التي ولدتها الهايلة، وكانت آخر ما ولدته، فقد كانت تشبه «الهايلة» تماماً، بجمالها وذكائها، قل اهتمامه بـ«الهايلة» وصار لا يسأل عنها إلا لماماً، حتى حين كان يأخذها السائس إلى النهر لتغتسل وتروض جسدها، والتي كانت فيما مضى محط اهتمام العمدة حيث كان يراقبها بمتعة خاصة وهي تتحسس الماء على جسدها رافعة رأسها إلى الأعلى وكأنها تناشد السماء أو تغني لها حسب تعبير «غباش».

مع بداية الصباح الذي يسبق يوم العيد، ودون علم والداه، لبس «غباش» جلبابه الجديد «جلباب العيد» ووضع طاقيته الخضراء الداكنة الجديدة على شعر رأسه المحلوق حديثاً، وتوجه صوب الزريبة، كأنه على موعد مع عشيقة انتظرها طويلاً، وما أن وصل عند باب الزريبة، حتى شاهد السائس منشغلاً بحصان جديد كان قد جلبه العمدة من كفر النحّاس بعد أن اشتراه «برخص التراب» حسب تعبير السائس، من مُزارع كان يشكو العازة بعد أن أكلت الدودة محصول القطن في أرضه... لم تكن تلك الأخبار والحصان الفتي الجديد قد أثار اهتمام «غباش» وقد لاحظ السائس ذلك وابتسم وهو ينظر متفرساً ملامح الشاب الذي يقف أمامه بملابس العيد قبل حلوله، ونظرته متسمرة صوب الزاوية القصية من الزريبة حيث «الهايلة»، وبعد لحظة صمت قال «غباش» دون أن يغير زاوية نظره:

«هل «الهايلة» بخير؟... أليس اليوم موعد استحمامها بالنهر؟» ابتسم له السائس وأخبره بأنه مشغول بالحصان الجديد، وأن لا وقت لديه لأخذها إلى النهر، حينذاك أشرقت ملامح «غباش» وارتسمت

ابتسامة عريضة على شفتيه، ليطلب من السائس السماح له بأخذ «الهايلة» إلى النهر بدلاً عنه، فوافق الرجل دون أن ينسى إسداء الشكر لغباش على المساعدة التي أبداها له.

حين أمسك غباش بالحبل المربوط إلى رقبة «الهايلة» وسحبها بفرحٍ غامرٍ إلى خارج الزريبة، لم يسمع كلمات السائس الذي حاول تنبيهَهُ إلى أن الفرس تشكو من عطبٍ صغير في إحدى قوائمها، وكان يشير بيده جهة اليمين، لكن غباشاً الذي أخذه الفرح، لم ينتبه إلى ما أشار إليه السائس... ابتعد حاملاً فرحه صوب النهر وهو يقود «الهايلة» مربتاً على رقبتها البيضاء اللامعة، مستمتعاً بـ «موسيقى» حمحمات الهايلة وإيقاع خطواتها المرتبك...

كان النهر محفوفاً بأشجار النخيل التي طالما كانت تظلله لتمنح ماءهُ عمقاً لونياً ساحراً لا تنقصه الهيبة، وحين انتبه غبّاش إلى زقزقة العصافير، ربتَ على عنق الهايلة وأخبرها بأن العصافير تعلن عن فرحها الغامر لزيارة «صانعة الطعام» للنهر، لتستحم كما العروس في ليلة زفافها.

حين انتهى من غسل «الهايلة» التي نفضت جسدها بحركة مذهلة أدهشت الشاب المسحور بجمال اللحظة، امتطى «غباش» الفرس دون أن يفكر مسبقاً بقراره. حينها، شعر أن طاقيته الجديدة الخضراء تلامس السماء وأنه صار يمتلك الأرض التي لم تعد تلامس قدميه... كانت تلك المرة الأولى التي يعتلي بها ظهر معشوقته التي سار بها عائداً صوب دوار العمدة... ومن بعيد شاهد القرية ببيوتها والواطئة وأشجارها، ترتفع وتهبط، ترتفع صوب الشمال ثم سرعان ما

تهبط يميناً، لتعاود الكرة مرة أخرى... في الطريق، كان هناك صبية يفترشون الأرض يغنون أغنية «العروسة»، كانوا يرتفعون شمالاً ويهبطون يميناً أيضاً وكأن الأرض تؤرجحهم، وحين مرَّ «الفارس» بقربهم، سكتوا، فبان البؤس على وجوههم، إلا أن الفارس لم ينتبه لهم، ولم يسمع غناءهم، حتى تلك النسوة الضامرات اللواتي وقفن بوجوههن المتربات ينظرن صوبه، متأرجحات بين اليسار صعوداً واليمين هبوطاً، لم ينلن اهتمام «غباش» المسحور فوق ظهر حلمه الدافئ... وحين وصل دوار العمدة الذي كان جالساً أمام بابه وفي يده المنشة المصنوعة من شعر ذيل «المستورة» والذي وقف منادياً على «غباش» طالباً منه التوقف رحمةً بساق «الهايلة» المعطوبة، لم يعره أي اهتمام كونه لم يره ولم يسمع أوامره ليستمر ملتصقاً بظهر معشوقته، حتى خرج من الجهة الأخرى للقرية متجهاً صوب بستان «الغرباوية» البعيد الذي صار هو الآخر يرتفع صوب اليسار ويهبط يميناً...

لم يعد «غباش» للنجع حتى بعد أن ماتت والدته ولحقها زوجها بعد عامين من موتها، ولا يعرف أحد في أي أرضٍ حلَّ، وظلّت العصافير دائمة الحضور على أرض الزريبة تنقر الأرض باحثة عن القشور والحبوب والديدان وبقايا العلف، كما ظلت تزقزق للنهر وكأنها تغني لعروس تستحم في مائه محتفلةً بقرب زفافها... والذي شاع في النجع، أن غبّاشاً قد وصل بالهايلة البحر، لكنه لم يقف عنده بل ظل البحر يرتفع شمالاً ويهبط يميناً حتى تعب.

(10)

الموصل...

«العبّارة»... «رحلة القط ميزو»

كان في شهره السادس حين رماه والده في مياه المسبح، تأمله قليلاً ثم رمى بجسده الضخم خلف ولده الوحيد الذي انتظره طويلاً، صار الطفل يسبح سعيداً بدفء مياه المسبح ولكن بقليل من الدهشة وعظيم الرهبة، ربما كانت رهبة ودهشة الاكتشاف. عامّ الطفل على سطح الماء ضارباً بيديه وساقيه وقد اتسعت عيناه وصار يتلفت كثيراً حتى وجد والده بقربه، هكذا ودون أن يعلمه أحد السباحة، صار «يزن» يتقنها بتلقائية ومرح.

منذ ذلك الحين، دأب والد «يزن» على اصطحاب ولده عند عطلة نهاية الأسبوع، إلى النادي الرياضي، يقضيان الساعات الثلاث داخل المسبح، يمرحان ويتلقى الصبي دروس السباحة من والده الذي نال العديد من الجوائز في مسابقات السباحة المدرسية والجامعية، حتى صار مدرباً محترفاً لرياضة السباحة في نادي المدينة، وحين صار «يزن» في العاشرة من عمره، وعند الشهر الأول من دراسته

الابتدائية حيث الصف الرابع الابتدائي، انضم إلى الفريق الرياضي الخاص بالمدرسة ليشارك في مسابقات مدارس المحافظة، استطاع من خلالها خطف المركز الأول ضمن فئته العمرية...

وفي أيام الصيف كان يزن ووالده يذهبان إلى النهر الذي يشطر المدينة إلى نصفين، كان والده يردد على مسامعه أن السباحة في النهر من شأنها تقوية عضلات الجسم وتمنح الجسد لياقة بدنية عالية، خصوصاً السباحة عكس التيار.. لم يكن النهر بعيداً، فالبيت حيث حي «الزنجيلي» لا تفصله إلا أمتار قليلة عن ضفة نهر دجلة، وكثيراً ما خرجت العائلة إلى الضفة المفروشة بالعشب والتي تحفها الأشجار لتتمتع كباقي عوائل المدينة بعلاقتها الحميمة مع النهر، الذي طالما كان أنيسهم في مساءات الصيف... كانا يسبحان قرب الجسر الثالث، يسبحان ذهاباً صوب شارع العشاق حيث الضفة الأخرى، وهناك يجلسان قليلاً ثم يسبحان صوب حي «الزنجيلي» مرة أخرى... وأحياناً يزوران القلعة القديمة، ومن هناك حيث ضيق المسافة بين الضفتين، يسبحان ذهاباً وإياباً. بعد استراحة قصيرة، يرتقيان صوب القلعة العتيقة ليصلا أعلى قمة في المدينة شيدت عليها القلعة التاريخية...

كان شهر حزيران شديد الحرارة، وكانت خدمة توصيل التيار الكهربائي متعطلة طوال اليوم تقريباً، وذلك ما حدا بأغلب الصبيان وببعضٍ من العوائل إلى اللجوء صوب النهر، والغطس هناك هرباً من الحرارة الخانقة، وكانت أشجار الأثل والكالبتوس سخية في كرم ظلالها، ولم يكن يزن ووالده قد تغيبا عن ذلك المشهد... احتضنهما

النهر ببرودته الحميمة وصارا مع جمهرة الناس، كتلة بشرية لا ينقصها المرح، حتى دوّى صوت انفجار عظيم تبعته انفجارات عدة، وفي دقائق معدودة خلا النهر من البشر وأعلن حزنه الذي استمر لأكثر من ثلاث سنوات...

***

لم يكن «يزن» ذو العشرة أعوام صديقاً حميماً لـ «نسرين» أخته الكبرى التي طالما أحبت دميتها «القط ميزو» والتي كانت كثيراً ما تعتني بها وتدللها لدرجة أنها كانت ترفض الخلود إلى النوم دون أن يكون «ميزو» بين ذراعيها... إلا أن يزن كان يرى في القطط، مجرد مخالب حادة تروم خدش جلدة وجهه، وتلك الفكرة كانت السبب الرئيس الذي يقف وراء كرهه لدمية «القط ميزو» التي تذكّرهُ بعدوانية القطط كما يعتقد.

نسرين التي كانت لصيقة والدتها، والتي طالما توسلت لأبيها كي يعلمها السباحة، وفي كل مرة يوافق على طلبها، كانت الأم تقف حائلاً بينهما وبين الفكرة التي كانت ترفضها تماماً، حتى حلت الكارثة والتزمت العوائل بيوتها بعد أن أعلن «الوحوش» سيطرتهم التامة واحتلال المدينة، لتختفي إثر ذلك كل مظاهر الحياة المدنية...

ثلاث سنوات كارثية كانت أكثر من قاسية، مرت على المدينة، كبرت نسرين وبلغت الحلم على أصوات القنابل والبيانات العسكرية الكاذبة، وعرفت معنى الجوع والعوز، وصارت أكثر التصاقاً بأمها ودميتها «القط ميزو» وصار يزن أكثر مشاكسة لأخته الكبرى فقد ضاقت فسحة عالمه حتى صارت منحصرة بجدران البيت فقط ولفترة ليست بالقصيرة...

كانت أصوات الانفجارات ترعبه، وكان الصوت المنبثق من التلفاز أحياناً ومن المذياع أحياناً كثيرة وهو يذيع الأخبار الكارثية والمروعة حول تفجير المناطق الأثرية والقتل في الشوارع والجرائم البشعة التي كان «الوحوش» يرتكبونها، تفزعه إلى حدّ ارتجاف الجسد وجفاف الشفتين، وكان غالباً ما يلتجئ إلى النوم ليتخلص من الشعور ذاك، ومن أجل النهر أيضاً، فقد كان على يقين بأنه سيرى النهر في مناماته، وسيجد نفسه عائماً وسط النهر مجذفاً بكلتا يديه ورجليه صوب الضفة الأخرى...

***

حين هربَ «الوحوش»، بعد أن دمروا المدينة، خرج يزن إلى الشارع، ومع كل خطوة تصبح عيناه أكثر اتساعاً، ويزداد ذهولها كلما ابتعد عن البيت أكثر... العينان الذاهلتان باتساعهما تعجز عن احتواء أو تصديق ما تراها، شعر للحظة أنه يرى دماراً كان قد رآه في التلفاز أكثر من مرة، في أفلام الرسوم المتحركة أو الأكشن أو أفلام الرعب والخيال، ذلك ما حدّث والده به، وهو يصف انطباعه الذاهل...

«قتلوا المدينة يا بابا»

كان والده أكثر حزناً، فعمق المأساة التي يعرفها، كان أكبر من مدارك يزن، أو نسرين التي لم تتخل عن قطها، لكنه وعد أولاده أن يأخذهم إلى الجزيرة السياحية في عيد النوروز الذي صار يقترب يوماً بعد يوم، بعد أن صوَّرَ إلى ابنه جمال العودة إلى النهر والسباحة هناك:

«سيرجع كل شيء كما كان، وربما أفضل... تحلّ بالصبر أيها البطل، سيحتضننا النهر مرة أخرى، وإلى الأبد...».

في صبيحة عيد النوروز، كانت العائلة تستعد للخروج، وكانت قد أعدت كل شيء تقريباً منذ الليلة المنصرمة... ولكن، وبشكل مفاجئ، شعرت أم يزن بدوار وألم أسفل بطنها، فاعتذرت عن مرافقتهم الرحلة، دون أن تخبرهم بما تشكو منه، خوفاً من عدولهم عن الفكرة، لكنها أسرّت في أذن زوجها بضع كلمات، اتسعت ابتسامته على إثرها، ثم طبع قبلة على جبينها وضمَّ ولديه إلى جنبيه وغادر المنزل بصحبتهما...

شاكست نسرين أخاها الصغير، حين صارت تتحدث وتداعب دميتها، وما كان من يزن إلّا أن مدَّ يده بغية اختطاف «ميزو» من بين يديها، فصرخت مشتكية لوالدها من تصرف أخيها، فانتشرت عبارات الامتعاض والتأنيب بين الثلاثة دون أن ينسى أي منهم ضحكاته وممازحته، لكن الثلاثة سكتوا فجأة حين وصلوا حافة النهر حيث العبارة، كان حشد الناس كبيراً جداً، وكانت العبارة المتجهة إلى الضفة الأخرى على وشك التحرك، إلا أن الثلاثة استطاعوا الوقوف عليها في الدقيقة الأخيرة من موعد تحركها بعد أن دفع أبو يزن الأجرة... كانت العبارة مكتظة بالركاب، لدرجة أن هناك من غادرها خوفاً، وهناك من صاح مشيراً إلى أن العبارة تحمل أكثر من طاقتها، مما تسبّب في إثارة الرعب في روح نسرين ويزن وبعض الصبية... كان منسوب المياه مرتفعاً، وبسرعة جريان عالية، أكثر من المعتاد، ورغم ذلك تحركت العبارة صوب الضفة الأخرى حيث الجزيرة

السياحية، لكن ما أن وصلت وسط النهر حتى سُمعَ صوت طقطقة مالت العبارة على إثرها، فتعالت صرخات الناس ودبَّ الذعر فيهم، فمالت أكثر وسقط من كان على سطحها لتتلقفه مياه النهر الغاضب. وكان والد يزن يمسك بيد نسرين، ولم يفلتها حتى حين سقطا في الماء...

«ميزو... ميزو... لقد سقط ميزو في النهر... بابا سيغرق قطي الجميل...» صرخت نسرين منادية على دميتها، لكن والدها طلب منها التماسك ونسيان الدمية التي سيشتري لها أفضل منها، ثم قال مطمئناً لها وعلامات الهلع والحرص واضحة على صوته:

«لا تخافي حبيبتي، سأخرجك من النهر سالمة...» ثم صرخ على ابنه: «أيها البطل عليك بالسباحة حتى الضفة، تماسك! فأنت أمهر سباح في المنطقة... تذكر هذا... تشجع يا بطل...».

كان النهر غاضباً بعنف، فما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى صارت الأجساد والرؤوس الناتئة منه بعيدة عن العبارة التي صارت تدور ونصفها غارق في ماء النهر المتدفق بجنون... صار يزن يسبح وهو يجاهد شدة التيار، كان كثير الثقة بقدراته ولم يفزعه هيجان النهر، وفي لحظة شاهد أمامه دمية نسرين طافية على ماء النهر لكن التيار كان يدفعها سريعاً نحو الجنوب، فعزم على اللحاق بها، وفعل. في تلك اللحظة شعر بخطورة ما يفعله وفكر بعظمة التيار وسرعته، لكنه عزم على الإمساك بها... زادَ من همته وسرعته صوب الدمية التي ركز نظره عليها ولم تغب عنه لحظة حتى وصل إليها واستطاع الإمساك بها، في تلك اللحظة التي مسك بها يزن دمية القط ميزو،

كان قريباً من ضفة النهر الطينية، وحين مسك الدمية التف جسده بالكامل ودار دورة كاملة فاقترب أكثر من الجرف الذي كانت الأشجار والنباتات تحف به. حينذاك تلقفته أغصان شجرة عوسج كبيرة، خدشت بأشواكها الطويلة القاسية صدره وظهره، لكنه تمسك بأحد أغصانها ولم يكترث لكفه الذي وخزته الأشواك... وحين خرج من النهر ممزق الثياب، كان والده ونسرين بانتظاره، فلم يغب عن ناظريهما طيلة محاولته الإمساك بالقط ميزو، حتى صعوده كتف النهر الترابي...

احتضنه والده، وهو يطلق كلمات الفخر بولده الشجاع، وكذلك فعلت نسرين، التي احتضنت دميتها بفرح غامر، ولكنها حينما التفتت إلى شقيقها كي تشكره لإنقاذه ميزو لاحظت الخدوش الحمراء على صدره التي كانت في جزءٍ منها دامية، فصرخت فزعة وهي تسأل عن السبب، فقال لها ضاحكاً:

«مخالب القط ميزو اللعين من فعل بي هذا... فقد حاول التمسك بصدري خوفاً من الغرق...». أطلق الجميع ضحكاتهم، وطوقت نسرين بساعدها كتف أخيها وسارت إلى جانبه مبتسمة، رغم آثار الفزع التي ما زالت عالقة داخل روحها...

حين عاد الثلاثة إلى البيت كان خبر غرق العبارة لم ينتشر بعد، ولم تكن أم يزن قد سمعت به، لكنهم، وبعد فترة وجيزة، حين جلسوا أمام التلفاز، عرفوا أن أكثر من مئة وعشرين روحاً قد زُهقت غرقاً.

(11)

العراق ـ الفلّوجة

«وطنٌ للغربـاء»

«بعد مرور مئة عام على الاحتلال ـ الفلّوجة عام 2103»

«ما الذي تفعله جدتي، لماذا هي ملتصقة بالشباك هكذا منذُ وقتٍ طويل؟»

«تراقب الغرباء.. لا ترفع صوتك كي لا تزعجها!»

«ومتى تنظر إلينا؟.. أريدها أن تلاعبني»

«اقتربْ مني! أنا ألاعبك»

يجلس الطفل ذو السنوات الخمس أمام والدته لتبدأ لعبة الإمساك بالضوء.. يدعك الطفل كفّيه ببعضهما لثوانٍ ثم يمسك علبة ملونة سرعان ما ينبثق الضوء منها مرتفعاً حيث السقف الأبيض الأملس، في هذه الأثناء تبدأ الأم بإفراد سبابة كفها الأيسر لتخترق بها حزمة الضوء وتبدأ بسرد القصة لطفلها، وحالما تبدأ الحكاية بصوت الأم الهامس، تظهر في السقف حكايتها على شكل فيلم سينمائي صامت...

الجدة ما تزال ملتصقة بالشباك دون أية حركة...

الأم تحكي لطفلها قصة الطير الذي هاجر بعيداً حيث بلاد الثلج... الطفل يرى تلالاً من الثلج...

«ماما الثلج مخيف.. أشعر بالبرد.. هل الطير يعاني البرد مثلي؟»

تسحب الأم سبابتها من داخل حزمة الضوء، فتختفي الصورة من السقف، تسحب طفلها إلى حجرها فيختفي الضوء المنبعث من العلبة... تحتضنه وتبدأ تأرجحه بحركة جسدها وهي تضحك لفعلة ولدها...

«كيف تشعر بالبرد ونحن في فصل الصيف العراقي؟ صحيح نحن الآن في بيت جدتك الذي تحيطه أشجار بستانها الكبير، لكن، لا وجود للبرد يا صغيري»

«متى تأتي جدتي؟»

«لا ترفع صوتك!... جدتك ما تزال تراقب»

«تراقب الغرباء؟»

«صحيح»

«ومن أين يأتي الغرباء؟»

«من السماء...»

تطلق الجدة صوتاً هامساً.. «لقد هبطوا.. هبطوا.. تعالوا وأنظروا...»

تهرع المرأة الشابة صوب الشباك وهي تحمل طفلها، تلتصق بوالدتها ناظرةً بدهشة صوب النهر، تشاهد كتلة حديدية ضخمة بلون فضي كان كافياً ليعكس ضوء الشمس بسطوعٍ يُزعج الناظر.. تخرج مجموعة مكونة من أربعة أشخاص من الكتلة الفضية أو «المركبة» كما تسميها الجدة، حاملين بأيديهم خرطوماً وردي اللون.. يغمرونه في قلب النهر فيرتفع هدير واطئ لمحركٍ ما.. الأشخاص يرتدون ملابس فضية وعلى رؤوسهم قبعات زجاجية...

«ماما، هل تشاهدين هذا كل يوم وفي نفس الوقت؟» تسأل المرأة، فتجيب الجدة بحزم: «هُس!.. الوقت الآن للمشاهدة وليس للكلام..»

بعد أن وضع الأشخاص الأربعة الخرطوم في قلب النهر، أخرج كل واحد منهم كيساً من جيبه، وراحوا يفتحون طيّاته حتى استوى كيساً كبيراً بني اللون.. جثوا على الأرض وراحوا يغرفون الطين بأيديهم ويعبّئون الأكياس...

«ماما أنا عطشان» قال الطفل.. ترد عليه الجدة بهمس لا يخلو من الحنين: «اصمت يا حبيبي، دقائق وأحضر لك عصير البرتقال».

الأشخاص الأربعة حملوا الأكياس على ظهورهم بعد أن امتلأت بالطين، توجهوا صوب مركبتهم واختفوا داخلها..

«إنهم يسرقون أرضي» تفكر الجدة بصوتٍ يكاد يكون مسموعاً...

الطفل يسأم المشاهدة.. يفلت من حضن أمه ليتجه صوب طائر البلبل الذي يقف فوق قفصه في استراحة بعد أن جال طائراً في فضاء

الصالة الواسعة.. يقف الطفل أمام البلبل ويبدأ بالقفز فارداً يديه إلى الجانبين مع كل قفزة، وكأنه يشير للطائر بالطيران.. البلبل يدخل القفص ليشرب...

يختفي هدير المحرك، يخرج الأشخاص الأربعة من المركبة، يسحبون الخرطوم الوردي إلى الداخل... ترتفع المركبة إلى الأعلى، ثم تختفي بسرعة هائلة...

«هكذا في كل يوم.. يأتون ليسرقوا ماء الفرات وطينه، يسرقون طين أرضي.. لا أحد يمكنه منعهم» توجه الجدة كلامها لابنتها وتضيف: «يقولون، إن ماء الفرات يشفي جميع الأمراض في كوكبهم، وإنه الأفضل في طهي طعام ملوكهم وأمرائهم، أما طين الفرات، فيقولون إن من يطلي به جسده لثلاثة أيام متتالية فأنه لن يموت إلا إذا قرر هو الموت، لذا فإن الكيلو غرام الواحد من طين الفرات يعادل بثمنه طناً من الذهب في بلدنا المسروق... هل يعقل هذا؟»

«يا أمي.. ماذا عسانا أن نفعل... الناس يسكنها الخوف، يختبئون داخل بيوتهم ويوصدون الأبواب، فتصبح المدن كلها مدن أشباح حين يحين موعد نزولهم.. ألم تصدر الحكومة بياناً بهذا؟» ترد عليها بنتها بغية التخفيف عنها...

«جدتي! أين عصير البرتقال؟»

«إذا تركت الطائر وشأنه، ولم تُزعجه أو تُخِفْهُ، فسوف أجلب لكَ قدحاً كبيراً من العصير»

«حاضر.. سأفعل، سأجلس إلى جوار أمي».. يتجه الطفل صوب

والدته التي سرعان ما تأخذه بحجرها وتداعب له فروة شعره، تقبّلهُ وتهمس بأذنه قائلةً: «لا تجعل من الطائر كائناً خائفاً، لأنه إن عرف الخوف، فلن يغني لنا أغنية الصباح..» ثم تضيف وكأنّها تفكر بصوتٍ عالٍ، بعد أن ترفع رأسها بعيداً عن رأس طفلها: «يبدو أن الطيور هي الكائنات الوحيدة في عالمنا التي لم تعرف الخوف بعد، لذا فهي ما تزال تغرّد وتزقزق وتبني أعشاشها!!»

يرتفع صوت الجدة قليلاً بعد أن سمعت ما قالته ابنتها: «ونحن البشر ما زلنا نغني ونتزوج ونبني بيوتاً ونحلم وننجب، رغم أن الخوف يتلبسنا، يقال أن الخوف قد تمازج مع الجينات العراقية منذ زمن بعيد..»

«ماما، هذا غير مسموح به رجاءً... هل نقول هذا على مسامع أطفالنا؟»

تقترب الجدة من ابنتها وحفيدها وهي تمسك قدحاً كبيراً من العصير، تقدمه لحفيدها وهي تقول: «معكِ حق، كان عليَّ احترام طفولة حفيدي.»

تبتسم المرأة لوالدتها وكأنها تشكرها، ثم تستدرك: «بالمناسبة، قلتِ بأننا ما زلنا نبني البيوت ونحلم وننجب، ترى من بنى هذا البيت الجميل الذي وُلِدتُ أنا وأخوتي فيه؟.»

«وأنا أيضاً وُلِدتُ هنا عام 2023، أي أنني «فلّوجية» أصيلة، فأنا الآن في الثمانين من عمري كما تعرفين..» تقول الجدة وتضيف: «هذا البيت بناه جدي، والد أمي، أتذكره جيداً لأنني عشت معه هنا، وحين مات كنت أنا في الرابعة عشرة من عمري...»

تقاطع المرأة والدتها قائلة: «ماما، لماذا لا تحدثيننا عن قصة هذا البيت من خلال لعبة الضوء؟.. ستكون ممتعة بكل تأكيد..»

«كلا.. هذه فكرة سيئة، فالطفل سيرى ما يحزنه» تقول الجدة وتكمل حديثها بشيء من الأسى وكأنها لا تريد أن تكمل: «المهم، جدي كان يدرس الهندسة الكهربائية في إنكلترا، وحين أكمل دراسته بقي هناك، تزوج جدتي التي كانت تدرس القانون، وأنجب بنته الوحيدة «حنين» أمي... عام 2003 وحين أسقط الجيش الأمريكي نظام الحكم العراقي آنذاك، عاد جدي إلى العراق مع زوجته وأمي التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها... المهم، ولا أريد الإطالة... عاد جدي ليعيش ويموت في بلده، فاشترى هذا البستان على أطراف الفلوجة رغم كل القلاقل والمشاكل التي عرفتها المنطقة آنذاك، فقد أغراه الثمن، ثم أن البستان يقع على مساحة أرضية خصبة جداً، فالأرض ترتسم على شكل جزيرة صغيرة رائعة يحيطها نهر الفرات من جميع جهاتها، كان يقول واصفاً هذا المكان، إنه أجمل وأنقى منتجع صحي في العالم..« ثم تستدرك بضجر واضح: «يكفي هذا، لا أريد الحديث عن الماضي فأنا لا أحبه..»

«وهل البستان وهذه الأرض، ما دفعكِ إلى دراسة الهندسة الزراعية؟»

«أكيد فأنا أعشق رائحة الأرض وعبق الأشجار...» تقاطعها ابنتها قائلة: «وتتغزلين بالنخلة وكأنك عاشقة..»

«أنا عاشقة لكل ما موجود على هذه الأرض.. إنها سر وجودنا..» ثم تستدرك: «ولكن.. ولكن كيف بهؤلاء الغرباء الذين يسرقون كل

يوم قطعة من أرضنا، ليس هنا فقط، بل في أغلب الأماكن والقرى التي تقع على ضفاف الفرات...»

«يا أمي أنتِ تعرفين بأنني أعيش مع زوجي في ديالى، وهناك نهر ديالى الذي يصب في نهر دجلة وليس الفرات... هناك نسمع ما يجري على ضفاف الفرات، ولكنكم هنا تشاهدون هذا بأعينكم، أي بمرارة أكبر...».

«وماذا تسمعون أيضاً؟» تسأل الجدة

« بعد أن أصدرت حكومتنا بيانها الذي يمنع التعرض إلى الغرباء، وأجبرت الناس التزام البيوت وعدم الخروج عندما يحين وقت هبوطهم، أصبح الناس يقولون بأن الحكومة متواطئة معهم، وهي تقبض الأموال الطائلة مقابل هذا...»

«وماذا عن صفقة الكراسي الطائرة؟... أليس الغرباء من أهدى حكومتنا وحكومات الأرض هذه الكراسي، هدية مجانية ثمناً لسكوتهم؟..» ثم تستدرك: «أين وضعتِ كرسيكِ الطائر؟»

«داخل ورشة العُدد الزراعية.» تجيب المرأة

«هذا جيد... كم دقيقة تأخذ الرحلة بين ديالى والفلّوجة، على كرسيكِ الطائر؟»

«عشرون دقيقة، هذا إذا كانت السماء غير مزدحمة..» تقول المرأة ثم تضيف: «إذا كانت الحكومة قد حصلت على الكراسي الطائرة من الغرباء بالمجان، فلماذا يبيعونها إلينا بأسعار باهظة؟»

ترد الجدة بشيء من السخرية: «حتى لا تكون بمتناول كل من هبَ

ودبْ..» تطلق ضحكة مسموعة القهقهات، ثم تقول: «أتذكّر الأيام الأخيرة لاستعمال الإنسان الدراجة الهوائية، كان شيئاً مضحكاً، يستنزف الإنسان جهده كله ليقطع أمتاراً معدودة...»

«ولكنها رياضة بدنية هائلة..» ترد المرأة وتضيف: «الآن أصبحت السيّارة لعبة للأطفال بعد أن عمدت المصانع على تصغير حجمها وعدَّلوا سرعتها لتساوي سرعة الدراجات الهوائية التي تتحدثين عنها..»

تطلق الجدة ضحكة أعلى من سابقتها وتقول: «لذلك ترين الأطفال منتفخي البطون، كروشهم متهدلة ويشكون من أمراض كانت سابقاً تسمى أمراض الشيخوخة..»

الطفل ما زال مستمتعاً باحتساء رشفات صغيرة من قدح العصير، وهو يتخذ من حجر جدته مقعداً وثيراً.

«الكراسي الطائرة منحتنا حرية كبيرة في التنقل يا أمي... فأنا مثلاً، وبعد شرائي لهذا الكرسي أصبحتُ أزورك باستمرار، أو لأكون منصفة، مرة كل شهر، بدل الزيارة السنوية...» قالت المرأة ذلك وهي تبتسم بوجه أمها.

«ليس هذا فقط... وتذكري أن البداية كانت مع الأوتوبيس الطائر الذي يحتوي على ستة مقاعد مخصصة للمسافرين، كان ذلك أول الهدايا التي منحها الغرباء لحكومات دول هذه الأرض، ثمناً لإرضائهم وعدم التعرض إلى جنودهم حين يهبطون على أرضنا..»

«أكيد، أتذكر هذا، الحقيقة أن للغرباء فضلاً علينا، رغم خوفنا

الشديد منهم، وسرقتهم المستمرة لمياه نهرنا وطين أرضنا، فهم مَنْ جرَّد هذه الأرض من السلاح، كانت الأسلحة تختفي ولا أحد يعرف كيف وإلى أين تذهب، ومن هو السارق، البنادق والدبابات والطائرات والصواريخ وغيرها من الأسلحة الفتاكة كلها اختفت من على أرضنا، حتى باتت الأرض نظيفة من السلاح...» قالت المرأة فقاطعتها الجدة قائلة وكأنها تكمل كلام ابنتها: «ولم نعرف الحقيقة إلا بعد أن لاحظنا توقف بث القنوات التلفزيونية والاتصالات الهاتفية، وكل الخدمات التي كانت توفرها لنا الأقمار الصناعية، حينها عرفنا بعد عودة خدمة الأقمار الصناعية، بأن الغرباء قاموا باستبدال الأقمار الصناعية، بأقمار أخرى تعمل تحت سيطرتهم هم وليست دول وحكومات وشركات الأرض... كنتِ حينها صغيرة يا عزيزتي، ربما لا تتذكرين هذا..».

«أتذكر هذا جيداً، فلم أكن صغيرة جداً...» قالت المرأة وأضافت: «لكنني أعرف ذلك التاريخ جيداً حيث قرأته في كتبنا المدرسية التي ألفها لنا الغرباء بعد عامين من تاريخ استبدال الأقمار الصناعية...»

شعرت الجدة بتنمل في أطرافها لثقل وزن حفيدها الذي يجلس على حجرها منذ فترة.. طلبت من حفيدها الانتقال إلى والدته، لتريح ساقيها..

انتقل الطفل إلى حضن أمه بينما قامت الجدة تتمشى داخل الصالة، مُبدية حرصها على أن لا تبتعد عن ابنتها وحفيدها.. مدت يدها صوب مكعب زجاجي كبير بعض الشيء، بأضلاع معدنية فضية اللون، وراحت تضغط بعض الأزرار الموجودة على سطح المكعب

وكأنها تكتب شيئاً.. حدث هذا في الوقت الذي كانت المرأة تتحدث إلى والدتها... «الغرباء بقوانينهم التي فرضوها، جردوا حكومات الأرض من سلطاتهم، أصبحت جميع الحكومات خدمية وليست سلطوية.. وصار الناس يعيشون برفاهية نسبية، ولا يقلقهم إلا الخوف من مواجهة الغرباء.. وهذا...»

الجدة تلتفت إلى ابنتها بعد أن أنهت ما كانت منشغلة فيه عند المكعب الزجاجي الكبير، لتقول مقاطعة: «وهذا، ما جعل حكومات الأرض كلها متساوية في الواجبات والوظائف الخدمية لشعوبها، فلم يعد هناك قوة عظمى تقود الدول الصغرى إلى حروب ودمار وقتل يومي..»

«ولكن الغرباء هم من صار القوة العظمى يا أمي.. وجميع دول الأرض أصبحت دولاً ضعيفة بالنسبة لها...» قالت المرأة بمرارة وهي تداعب أصابع يد طفلها.

«هذا هو الواقع، فبعد أن كانت دولة واحدة على الأرض تهيمن بسطوتها على كافة الدول، تتحكم بالاقتصاد، وتتاجر بالسلاح، وتعزل الرؤساء وتنصّب غيرهم، وتقرر مقدار قُوُت الشعوب ومستوى معيشتهم، أخذ الغرباء بقوَتهم وتطورهم العلمي هذا الموقع، وإن كان في هذا حسنة واحدة تُذكر، فهي أن أرضنا لم تشهد حرباً ودماء منذ ثلاثين عاماً... »قالت الجدة هذا، ثم استدركت قائلة: «لقد جهّزتُ لكم الغداء، سيكون جاهزاً خلال نصف ساعة، المطبخ الزجاجي استلم الأوامر.. عليكم أن تتناولوا غداءكم قبل سفركم..»

«هذا رائع يا أمي، شكراً لكِ.. ولكن ماذا عن أرضكِ التي

تتناقص يوماً بعد يوم بفعل سرقة الغرباء لطينها، أليس هناك حل لهذه المشكلة؟ فبعد سنوات ستختفي هذه الأرض ببستانها الجميل، وتبتلعها المياه.. أشعر بالرعب حقاً حين يذهب تفكيري إلى تصور اختفاء هذه الأرض ببستانها الجميل.. بستانكِ، بكل جماله وحياته النابضة بموسيقى الطيور وألوانه الجميلة...»

تنظر الجدة صوب ابنتها وحفيدها بحنين واضح وتقول: «هذه ليست أرضي وحدي، إنها أرضكِ أيضاً، والأهم من هذا إنها أرض أحفادي التي سأتركها لهم ذكرى عزيزة توارثناها عن أجدادنا وآبائنا، لتبقى بالفعل محمية رائعة ومرتعاً مهماً لأهم طيور العراق..»

«وكيف نحافظ عليها، والغرباء يسرقونها كل يوم..» تسأل المرأة فتجيبها والدتها:

«لقد ذهب أخوكِ الكبير وزوجته إلى بغداد منذ يومين ليقابل المسؤولين في الحكومة ويشرح لهم المشكلة، علّهم يقدمون التماساً إلى سلطة الغرباء كي يتركوا هذه الجزيرة الصغيرة النابضة بالحياة في قلب الفرات..» تقول الجدة كلماتها بمرارة ثم تضيف: «لقد تسرب قلقي إلى كل أجزاء جسدي، فهذه الأرض تاريخ، هي تاريخي وتاريخكم وتاريخ طيور العراق...»

ينظر الطفل إلى جدته، ويقول مقترِحاً، وكأنه عرَفَ جوهر المشكلة: «جدتي، لماذا لا تشترين العديد من الكلاب كي تحرس البستان، وتهاجم الغرباء حين يأتون؟...»

تطلق الجدة وبنتها ضحكات فرحة بما قاله الطفل، فتجيبه الجدة

بفرح غامر: «إنه حلٌّ رائع يا صغيري، ولكنه ليس عملياً... صحيح أن الكلاب أكثر وفاءً من حكامنا، لكنها لا تستطيع الصمود أمام أسلحة الغرباء...».

تستمر الجدة وابنتها بالضحك لفترة قصيرة، وحالما تخفت نوبة الضحك، تنظر المرأة صوب والدتها وهي ما تزال تضحك، وتسألها:

«أمي.. هل صحيح أن المرأة العراقية كانت ترتدي في السابق قطعة قماش على رأسها أينما ذهبت، تسمى الحجاب؟».

(12)

كوبنهاغن...

«السفير وتماثيل الحب»

شبك السيد «مامادو أمباكي» كفيه خلف رأسه وهو يحاول النوم فارداً جسده على فراش سريره «المريح جداً» حسب ما كان يردده، وراح يتذكر تماثيل المناطق التي زارها خلال تواجده في مملكة الدانمارك، حين كان سفيراً لبلده هناك... كان كعادته، ينتظر حالة الوسن الممتعة التي سينام حتماً على إثرها... إنارة الغرفة كانت مطفأة، وستائر شباكيّ الغرفة قد تمت إزاحتها بيديه منذ قليل قبل أن يستقر جسده على الفراش... كان القمر واضحاً من الزاوية العليا للشباك جهة اليسار... ابتسم للقمر، وردد في سريرته:

«لا قمر في بلد الغيوم... لا قمر في بلد السماء الواطئة...» ثم أضاف مبتسماً: «إلّا نادراً...».

لكنه حين انتبه إلى ذاكرته وهي تستحضر تكوينات التماثيل وأفكارها وهو يتجول في شوارع مدن الدانمارك العديدة وشوارعها المعتنى بأشجارها وحدائقها، قال بصوتٍ مسموعٍ لا ينقصه الوهن:

«الحب، والاتزان، فكرتان تمثلان شعباً عظيماً ببساطته».

تذكر التمثال الأول الذي شاهده خلال الساعة الأولى من وصوله إلى كوبنهاغن... حدث ذلك في المطار حين وقع نظره على جسدين من البرونز لامرأتين تنتظران بعينين شاردتين... وقف يمعن النظر بهما، ثم ابتسم قائلاً:

«حبيبتان، بانتظار حبيبين» ثم أطلق قدماه صوب بوابة الخروج وهو يردد:

«مرحباً بلد الحب والانتظار».

ثم تذكر ذلك التمثال البرونزي الرائع الذي شاهده في اليوم الثالث من تسنمه منصب السفير حين دعاه وزير خارجية الدانمارك على العشاء في أحد مطاعم كوبنهاغن، دون أن ينسى منظر الوزير وهو قادم على دراجة هوائية ركنها عند الزاوية المخصصة للدراجات... في ذلك المطعم شاهد تمثالاً برونزياً لعاشقين، (هكذا تصور السيد «مامادو أمباكي» فكرة التمثال حينها) يُميل العاشق رأسه بكل حنان وفيض عاطفة صوب رأس عشيقته التي تحاول التمنّع بتودد... ظل السيد يدور حول التمثال الذي كان منتصباً على منصة صغيرة قريبة من المدخل وهو يتفحص تفاصيله، حتى اقترب منه صاحب المطعم الذي ألقى عليه التحية بكل أدب واحترام:

«ترى هل نال التمثال إعجاب السيد؟» قال السيد «توماس ساكسة» ذلك وهو يقف خلف القامة الأفريقية الفارعة للسيد «أمباكي» الذي التفت على الفور ليصبح وجهاً لوجه مع صاحب المطعم.

«أكيد... إنه تمثال رائع، يجسد فكرة الحب بصورة مذهلة» قال السيد «أمباكي» ذلك ولم تفارق الابتسامة ملامحه، فقال السيد «توماس» مبتسماً: «إنه هدية من صديقي الفنان Carsten Fun Jensen الذي يعد زبوناً دائماً لمطعمي وصديقاً شخصياً أعتز به، لكنني لا أتفق مع عنوان العمل كما تلاحظ هنا» أشار السيد توماس إلى قطعة معدنية منقوش عليها اسم الفنان وعنوان العمل، ثم أضاف: «كيف يكون عمل رائع يجسد الحب والاشتياق «بدون عنوان» أعتقد أن «رغبة حب» هي العنوان الأفضل لهذا العمل...». ربتَ السيد «أمباكي» على كتف صاحب المطعم قائلاً وهو يروم العودة إلى كرسيه.

«التجريد في العمل الفني يشبه الشّعر... ذلك هو سبب الاختلاف بين وجهات النظر».

في تلك الأمسية تحدث السيد «مامادو أمباكي» الرجل الأفريقي الطويل الداكن السمرة، الرشيق الجسم كعود البخور حين ينتصب واقفاً. شارحاً للسيد الوزير ذلك الانطباع الذي كونه عن الجسدين البرونزيين اللذين شاهدهما في المطار، ولم يخفِ إعجابه بالعمل، ابتسم له السيد الوزير، وحدثه عن تمثال آخر للفنانة نفسها في بداية شارع «فريدريكسبورغ جادة» أو «شارع المشي» كما يطلق عليه شعبياً، وهو أكثر جمالاً ودفئاً حسب اعتقاده الشخصي، ثم نظر صوبه نظرة لا تنقصها السعادة والإعجاب قائلاً:

«اعذرني سعادة السفير، فلدي سؤال شخصي... الحقيقة، لقد

قرأت ملفك، وهذا من صميم عملي كما تعلم، ووجدتُكَ فناناً تشكيلياً مرموقاً من خلال سيرتك الذاتية، وأنك حاصل على شهادة الدكتوراه في تاريخ الفن، وقد اشتغلت في التدريس الجامعي لسنوات، فكيف دخلت السلك الدبلوماسي؟» أطلق السيد ضحكة فخورة، وأشار إلى أنه قد تعرض لمثل هذا السؤال مرات عديدة، ثم قال بعبارة صريحة دون أن تغادره ابتسامته العريضة:

«أرادوا إبعادي عن الاحتكاك المباشر بالطلبة، أفكاري لا تعجبهم، ببساطة، هذا ما يقف خلف تحولي من الجامعة إلى السفارة...».

«كانت أمسية رائعة» قال السيد مامادو وهو ما يزال ممدداً على سريره، شابكاً كفيه خلف رأسه، ناظراً إلى القمر بحنان ومتعة... ثم تذكر زيارته للتمثال الذي أشار إليه السيد الوزير في تلك الأمسية، وكيف استدل عليه من خلال سائقه الدانماركي المهذب جداً، الشاب «ماتيَّس»، حين أدخله شارع «فريدريكسبورغ جادة» من جهة محطة قطار «النوربورت» التي كانت مزدحمة في نهار شتوي غائم، تحت سماء واطئة رمادية اللون، وكيف سارا في الشارع المزدحم مسافة المئة متر حتى وصلا إلى ساحة كبيرة تنتشر على أطرافها مقاهٍ وبعض الأكشاك لبيع الزهور والفاكهة. وقف الشاب عند بداية الساحة وأشار جهة اليسار إلى مصطبة برونزية يجلس عليها عجوزان برونزيان. اقترب السيد «أمباكي» من المصطبة وراح يتلمس رأس المرأة البرونزية وكأنه يلقي عليها التحية بكل عذوبة.

«كان تمثالاً بديعاً، خصوصاً تلك اللمسة الحنونة التي تظهرها يد الرجل البرونزي وهي تستقر على يد زوجته البرونزية أيضاً، تمثال بسيط يظهر الإنسان بحجمه الطبيعي. أحببته لدرجة جعلتني كثير التجوال بشوارع كوبنهاغن باحثاً عن الحب في تماثيلها...» قال ذلك مبتسماً وهو ينظر صوب القمر من خلال شباك غرفته المطفأة الأنوار. في تلك اللحظة كان يتحسس عظام أصابع يده اليمنى بأصابع اليسرى، فقال منتبهاً: «آه، تذكرت ذلك البرد اللعين الذي غالباً ما كان يمنعني من التجول...» ثم أغمض عينيه بضع ثوانٍ ليعود بعد ذلك بذاكرته إلى التمثال الذي كان بعنوان «زوجان عجوزان على مصطبة» للنحاتة «Hanne Varming» التي ذاع صيتها منذ سبعينيات القرن العشرين لتنتشر تماثيلها في العديد من المدن والشوارع، حيث كان الحب والأمومة والعائلة مواضيعها الرئيسة التي جسدتها تماثيلها، ذلك ما عرفه السيد السفير فيما بعد، حتى أنه زارها لأكثر من مرة في بيتها ومشغلها، حيث توطدت العلاقة بينهما بشكل حميمي... كانت النحاتة تكنّ له الاحترام، وكان يجد فيها روحاً فنية عميقة التفكير، رهيفة الأحاسيس.

«في كلِّ زاوية من زوايا كوبنهاغن، تجد الحب... حتى عند النظر إلى كلابها.». كلمة، طالما رددها السيد «مامادو أمباكي» على مسامع أصدقائه.

كان السيد «مامادو أمباكي» السفير السنغالي، ذو الستين ربيعاً، معجباً بأعمال النحات Anders Bundgård أيضاً، والذي طالما

يتذكره ضاحكاً أثناء حديثه عن أعماله حين يردد: «كنتُ أتمنى اللقاء به. وحين بحثت عنه وجدته قد غادر الحياة منذ أكثر من مئة عام، والغريب أنني ما زلتُ راغباً في لقائه...» يطلق ضحكته المحببة والمتوجة بغمازة على خده اليمين ويضيف: «فالرغبة قد تعمّقت داخلي لسبب آخر، فلو كان ذلك ممكناً، لأخذته إلى تمثاله الضخم «نافورة جيفيون» القريب من الميناء والحدائق الملكية، لأطلب منه أن يرمي قطعة نقدية في بحيرة الماء الخاصة بالتمثال كما يفعل الآخرون، ويتمنى العودة إلى الحياة مرة أخرى...». يستمر السيد «مامادو» ضاحكاً حتى يفصحُ عن أسفه لموت الأمنيات المستمر...

كان السيد «أمباكي» كثيراً ما يفصح عن إعجابه بتمثال لهذا الفنان بعنوان «وجولة اليوم، مع متطلباتها الألف»... تمثال صغير من الرخام في شارع «Skovebogårds Allé» الضيق، والتابع لمدينة «فالبي» الذي كان غالباً ما يحنّ إليه، ويتردد لزيارته، كان يتذكره بروح مرحة ضاحكة، وهو يصف ذلك الشاب الرخامي الذي يحتضن حبيبته العارية تماماً بكل حب وحميمية طاغية...

تحسس السيد «مامادو» عظام أصابعه مرة أخرى، ولعن البرد مرات عديدة، لكنه أقنع نفسه قائلاً وكأنه يواسي أوجاعه: «لقد كان التجول في شوارع كوبنهاغن ممتعاً، فلماذا التذمر أيها العجوز المتقاعد؟». ثم شعر بحاجة إلى دخول الحمام... نهض من فراشه وغادر الغرفة دون أن ينيرها، وحين عاد وجد الغرفة مضاءة وهناك من يجلس على الكرسي الوحيد المقابل للسرير،

وقف أمامه مبتسماً وهو يتفحصه جيداً... كان يرتدي ملابس فرسان القرن الثامن عشر وبين يديه خوذته ذات الريشة البيضاء... كان مبتسماً، ويطوي ساقه اليمنى على اليسرى، كان مسترخياً تماماً وهو ينظر بوجه السيد السفير السابق، الذي شعر بأنه يعرف الزائر الغريب جيداً، ولكنه لا يستطيع تذكره، فراح يدور بذاكرته حتى قال بعد ثوانٍ من محاولة التذكر: «أين حصانك سيد كريستيان؟...» فقد تذكر السيد «أمباكي» أحد تماثيل المدينة الذي كان معجباً بها، وعرف شخصية «كريستيان السابع» ملك الدانمارك في ذلك التمثال. لكن الضيف القادم من القرن الثامن عشر لم يجب على سؤال صاحب القامة الفارعة رغم تقوسها قليلاً، فأعاد عليه السؤال ولكن بطريقة أخرى: «أيها الملك، أين حصانك؟... ولماذا قتلتَ صديقك، ذلك الطبيب التنويري السيد «سترونزي»...؟». حينها اختفت ابتسامة الضيف، وتجهمت ملامحه حتى ذرفت عيناه الدموع، وحين حاول السيد «أمباكي» التقرب منه، اختفى الضيف وأُطفئ مصباح الغرفة لتعود إلى الاحتفاء بضوء القمر.

لقد كانت شخصية الملك «كريستيان السابع» كثيراً ما تزور السيد «مامادو أمباكي» في مناماته، كونه كان معجباً بالفترة التي حكمَ خلالها ذلك الملك، وكثيراً ما قرأ عنها، وبحث فيها، وكان في تلك المنامات، كثيراً ما يناقشها رغم قناعته ببساطة عقل وتفكير جلالة الملك.

***

تلك، هي الكلمة التي قرأها السيد «أندرياس سورنسن» الطبيب والمعالج النفسي، الذي كان أقرب أصدقاء الراحل، السيد «مامادو أمباكي»، وطبيبه الخاص، وهو يقف عند قبره الذي أُعدَّ منذ ساعتين تقريباً، والذي ما زال ندياً.

المؤلف في سطور

حسين السكّاف
ناقد وروائي عراقي

حائز على جائزة كتارا للرواية العربية 2017 عن روايته "وجوه لتمثال زائف"

صدر له:
رواية "كوبنهاغن – مثلث الموت" دار ميريت – القاهرة 2007
الكتاب النقدي "الرواية العراقية... صورة الوجع العراقي" دار الروسم بغداد 2014
كتاب "طاقة الحب – مسرحيتان" – دار الروسم، بغداد 2015
الطبعة الثانية من رواية "كوبنهاغن – مثلث الموت" عن دار العارف - بيروت 2015.
رواية "وجوه لتمثال زائف" - دار كتارا 2018
المجموعة القصصية "بين الشيخ والمريد" دار فضاءات – عمان 2019
الترجمة الإنكليزية لرواية "وجوه لتمثال زائف" - دار كتارا 2019
المجموعة القصصية "مُدُن" – دار الفراشة، الكويت 2019
الكتاب النقدي "سرديات الوجع في الرواية العراقية" – دار فضاءات 2020
رواية "حياة.. حينانا" – دار فضاءات عمان 2021
طبعة جديدة لرواية "وجوه لتمثال زائف" دار فضاءات 2022

* نشر له العديد من القصص القصيرة والمقالات الصحفية والبحوث الفنية في مجال النقد الفني والأدبي في العديد من الصحف العربية والعراقية
* له بعض الترجمات الفنية والأدبية من اللغة الدنماركية إلى العربية، وعلى وجه خصوص، حركة الفن التشكيلي في أوربا خلال القرن العشرين.

الفهرس

(1) بودابست «تحت تمثال كالفن» 5
(2) مدينة الخبز «بلدة الشبابيك» 16
(3) اسطنبول «المُكتئِب الدانماركي» 23
(4) مدينة المعبد... «قلادة أمينة» 33
(5) بغداد... «مشهد مِنْ هُنا... ك» 43
(6) برشلونة... «صانع الوهم» 53
(7) دمشق، عدرا... «988 والعم شوكت» 58
(8) مراكش... عند سوق «دوّار العسكر» 64
(9) الصعيد ـ نجع الزيادي... عصافير «الهايلة» 68
(10) الموصل... «العبّارة»... «رحلة القط ميزو» 75
(11) العراق ـ الفلّوجة «وطنٌ للغرباء» «بعد مرور مئة عام على الاحتلال ـ الفلّوجة عام 2103» 82
(12) كوبنهاغن... «السفير وتماثيل الحب» 94

للاتصال بالمؤلف:

هاتف: 004527440907

Email: halsagaaf@hotmail.com

مُدُن...

مجموعة قصصيّة

حسين السكاف
ناقد وروائي عراقي

تضيع أحلام البسطاء حين تقتحم الخرافة جوهر الحقيقة... حين تكتم الخرافة ضوء الفكرة ووضوحها، تضيع قدسية الحقيقة وتصبح مجرد أوهام... الوهمُ مصنعٌ مجيد لإنتاج الكراهية... فكرة ترتكز عليها هذه المجموعة القصصية، وتظهرها للعيان بأمنياتها المريحة وكارثيتها المريرة، لتشير إلى ضرورة التخلص من الوهم وتبعاته حتى نتلمس الحقيقة على "حقيقتها" حيث يحاول المؤلف في مجموعته هذه محاربة الوهم معتمداً على مشاهدات وأفكار بوّبَها بأسماء مدن، لتكوّن عناوين قصصه...

"مُدُن"... مجموعة قصصية تحاكي مخيلة القارئ حيث تنأى بأفكارها عن المباشرة، وتُمكّن القارئ من الدخول بمتعة خاصة إلى عالم الرحلات الساحر، والإبحار في فضاءات مدن نكتشفها لأول مرة بأجوائها ومشاهدها، من خلال الطبيعة السرديّة التي تقدمها لنا هذه المجموعة لترسم لنا رحلات لا تخلُ من الدهشة قام بها المؤلف لمدنٍ مختلفة... رحلات تنتمي إلى الواقع ولا ينقصها الخيال، وأخرى تنتمي إلى الخيال لكنها منبثقة من صميم الواقع المعاش بفكرتها ورمزيتها...

ISBN 978-1-9896606-4-5

دار الفراشة للنشر والتوزيع
DAR AL FARASHA PUBLISHING AND DISTRIBUTION
ضاحية عبدالله السالم ص.ب: 153. الرمز البريدي 72262 الكويت
Alfarasha_q8 Alfarashaq8
alfarashapublishing@gmail.com